اصدار متميز

Special Edition Special Edition

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

الربيع العاصف

The Wild Spring



Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا











Design by Abdul Rahman Magdy

د. نجيب الكيلاني



مع دراسة نقدية

بقلم الأستاذ

محمد حسن عبد الله

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ -٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٠١٩

الترقيم الدولى:

977-255-356-2



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

[١]

لم يكن فى ذهنها- والعربة تسرع عبر الطريق الزراعى الممتد بين قريتى سنباط وشرشابة- سوى صورتين متناقضتين، تثيران فى قلبها الغض الألم والأحزان، صورة القاهرة الفاتنة الجميلة حيث الحياة المضيئة، والأهل والأصدقاء والذكريات والنظافة، وصورة القرية التى تقرر أن تعمل «بوحدتها المجمعة» حيث الفلاحون والبعوض والتراب والأمراض المتوطنة، وتنهدت منال فى ألم ثم قالت لسائق عربة الأجرة:

- متى نصل شرشابة؟؟

- لم يبق أمامنا سوى مسافة قصيرة.. نحن الآن على أبواب كفر حسين، وبعده كفر السحمية، وإلى جواره مباشرة تقع قرية شرشابة، إنها قرية كبيرة، عدد سكانها يقرب من خمسة عشر ألف نسمة.

كانت هذه أول مرة تذهب فيها «منال» إلى الريف، لقد قضت كل سنى حياتها فى القاهرة، فى حى السيندة زينب،

درست بالابتدائية، وعامين فى المدارس الثانوية، ثم عدة أعوام فى مدرسة الحكيمات بالقصر العينى حيث تعلمت فن التمريض، وتخرجت منها حكيمة، وعلى الفور تم تعيينها فى مستشفى الوحدة المجمعة بهذه القرية التى تدلف إليها لأول مرة فى حياتها، لتقوم بعملها كحكيمة فى هذه المؤسسة الجديدة التى لم يمضِ على افتتاحها سوى أيام قليلة.

وطوال الطريق كانت «منال» تجفف دمعة تنزلق فوق خدها لتستقبل أخرى، كانت تحس أن قلبها وروحها وعينيها كلها تبكى، كل شىء فيها كان يبكى، وكانت الذكريات الحلوة الماضية تتزاحم فى رأسها، فلا تثير لديها سوى الحسرة والألم، لطالما تمنت فى هذه اللحظات الكئيبة أن تمتد إليها يد أمها لتربت على رأسها فى حنان، وتخفف عن قلبها المكلوم آلام الغربة، ووحشة الوحدة، وخيل إليها أيام الفسحة فى حديقة الحيوان وفى الهرم، وعلى شاطئ النيل وفى المقطم، وشارع فؤاد، ودور السينما الرائعة، والكازينوهات الخافتة الضوء، خيل إليها أن هذه الأيام أصبحت كالأمنية الرائعة التى لن تعود، ولن يجود بمثلها الزمان. . ليس هذا فحسب، بل خفق قلبها خفقات حلوة لذيذة تورد معها خدها، وشعرت بغير قليل من الخجل العذرى عندما تذكرت القصر العينى - عالمها الفاتن المثير - حيث أطباء الامتياز ومئات بل ألوف زميلاتها،

وطرقات المستشفى الكبير الباهتة الضوء، وليالى النوبتجية حيث الشباب والعبث والمرح، ومعارك الحب البرىء ومشاعر النضوج والأمل التى تخفق فى صدرها وروحها، والتى تتسلل إلى جفنيها فتورثهما الأرق والسهر، ومئات القصص الشائقة التى تتناقلها أفواه العذارى فى القصر الكبير.. فى عنابر المرضى، وفى أكشاك الفحص الطبى، وفى حجرات العمليات الجراحية، وصحت «منال» من أحلامها على صوت السائق:

- هنا كفر حسين..

ومن خلال نافذة العربة أرسلت منال نظراتها الدمعة كان التراب يثور ويملأ الطريق الزراعى، والعربة تخلف وراءها قطاعًا مستطيلاً كالسراب المعتم، وأطفال صغار حفاة وأحيانًا عراة يتدافعون حول العربة، ويثيرون ضجيجًا مسموعًا مسرعًا، ونظراتهم الفضولية الجائعة إلى كل جديد عليهم تكاد تنسيهم الخطر المحدق بهم وهم يحاولون التعلق بجوانب العربة ومؤخرتها، وقوافل صغيرة من الأوز والدجاج والماعز والخراف تعترض الطريق فيضطر السائق إلى تفاديها أو التوقف حتى تتنحى جانبًا، ونساء غارقات فى أرديتهن السود يمددن أعناقهن من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية، أو الأبواب التى تتراص على جانبى الشارع والتى تؤدى إلى بيوت قميئة

مطلية بالطين ونادراً بالجص، تفوح من داخلها روائح عدة، روائح حياة الإنسان والحيوان. . وأكوام التراب وفجوات الطريق وعدم استوائه جعلت العربة تعلو وتهبط وتتأرجح، و«منال» بداخلها تتطوح يمنة ويسرة وأعلى وأسفل، وتحاول جاهدة أن تحفظ توازنها، وهتفت في ضيق:

- لماذا لا يمهدون هذه الطريق؟؟

فافتر ثغر السائق عن ابتسامة لم ترها «منال»، وقال:

- كلامك يذكرني بحادثة جرت لابنة أحد الملوك. . لقد سمعت أن الشعب ثائر. . وجائع. . فقالت لأبيها في استغراب «إذا لم يجد الناس الخبز فلماذا لا يأكلون الخشاف؟».

وابتسمت «منال» ابتسامة فيها الكثير من المجاملة، ابتسامة مغتصبة لم تكن نابعة من أعماقها فقد كانت تشعر بعزوف شديد عن المرح، والابتهاج، والابتسام، وقالت:

- وهل شرشابة بهذه الصورة؟؟

- كفر حسين صورة مصغرة لشرشابة يا آنستي. .

وخرجت العربة من كفر حسين، وعلى اليمين كانت تمتد بركة واسعة يسبح فيها البط والأوز تثور من ناحيتها رائحة العطن، ومن حولها تمتد الغيطان الخضراء، وعلى جانبي الطريق قامت أشجار السنط تبدو في جفافها وخلوها من المناظر

الجميلة وكأنها الفلاح الجاف الأسمر الفقير الذى يجلس تحت ظلها الخادع يطعم جاموسته أو يعزق الأرض، أو يأكل لقيمات جافة، أو يشرب من قُلّة عجفاء رمادية اللون مغبرة. .

واقتربت شرشابة- بيت القصيد- وشعرت «منال» - وهى تندفع إليها - بشعور الذاهب إلى مدينة الأموات رغم أنها ترى الأحياء يروحون ويجيئون، كانت تعتقد أنها تساق إلى حتفها سوقًا، فترقرت الدموع بين أهدابها الطويلة، وغامت عيناها، ولم تستطع أن ترى بعض الأبنية الجميلة لحد ما، ولم ترَ أيضًا «دكان البقالة» الذى يضع أمامه ثلاجة للمشروبات الغازية، وسمعت منال صوت السائق يتهادى على أذنيها متغلبًا على الضجيج الذى يثيره أطفال القرية:

- لا تحزنى. . أكل العيش يدفعنا لأن نقاسى شيئًا من المرارة. . ثم إن شرشابة قرية لطيفة. . وأهلها أولاد حظ. . أنا أعرفها تمامًا، وهى لا تبعد عن طنطا- بلد السيد البدوى- أكثر من عشرين كيلو مترًا، وفيها عدد لا بأس به من الأثرياء. . وكبار الموظفين، أؤكد لك أنك لن تشعرى بكثير من الملل. .

وعند مرور العربة أمام مدرسة القرية الابتدائية كان يقف أحد الخفراء، فانتحى جانب الطريق يصرخ فى الأطفال كى يبعدهم عن طريق العربة فى لهجة صارمة حادة، وإن كان

الأطفال لا يعيرونه كثيراً من الالتفات، وعندما حاذته العربة وقف فى وضع انتباه ورفع يده بحذاء حاجبه مؤديًا التحية العسكرية، وقالت منال فى استغراب :

- هل يحيينا . . ؟؟

- أجل، القرية كلها الآن تعرف أنك فى الطريق . . ثم إن الفلاحين يحيون راكبى العربات أيًا كان لونهم . . سترين فيما بعد أنهم لن يفرقوا بينك وبين طبيب المجموعة الصحية، كل من حمل محقنًا وارتدى الزى الأبيض فهو فى نظرهم طبيب . . وموظف حكومة . . يجب أن يحترم وأن تقدم له الهدايا . . إنهم بسطاء . . وكرماء . . قلبهم أبيض مثل القطن . . مثل اللبن الحليب .

وقطع السائق حديثه فجأة، ثم أشار بيده ناحية اليسار بعد المدرسة الابتدائية بقليل، وقال : هذا المبنى الضخم لا يقل روعة عن بعض عمارات القاهرة . .

فقالت منال :

- أجل . . لعله بيت العمدة . .

- كلا . . بل تفتيش أحد أغنياء المنطقة، يسمونه وقف «جنيد» يملكه عدد من الورثة أغلبهم من النساء، والأرض التى يضمها وقف جنيد هنا تكوّن حيزًا كبيرًا من الأرض المنزرعة . .

العين الفضولية تتلصص عبر نوافذ العربة، وتتركز لبعض لحظات على المرأة الجميلة التى تحبس فى المقعد الخلفى، والنظرات المشوقة إلى كل جديد تلاحق العربة رغم ذيل التراب الضخم الذى ينسحب وراءها، ويكاد يخفيها عن الأنظار، والسائق يحاول جاهدًا أن يطلق النفير باستمرار حتى يحذر الأطفال المندفعين نحوه دون حذر، وعلى جانبى الطريق خلق كثير يلبسون الطواقى والعمائم واللبدة، ونادر جدًا من يضعون فوق رءوسهم الطرابيش، والبعض ينام فوق المصاطب إلى جوار الماعز، ورغم الضجة المثارة إلا أنها تبدو أمام منال ضجة صغيرة.. كأنها أنات محتضر فى نزعه الأخير، وهل تقاس هذه الضوضاء الواهنة المؤقتة بضوضاء الترام فى ميدان السيدة زينب، وضجيج الأوتوبيسات والعربات والباعة والمجاذيب والمقاهى وأجهزة الراديو التى تنطلق وتملأ سماء المدينة بالأنغام والأغنيات والأناشيد؟

ومرقت العربة فوق قنطرة خشبية متهالكة؛ لتعبر ترعة كبيرة يعوم فيها الأطفال وتشرب منها البهائم، على شاطئيها بعض الحشائش والصبار وشجرة توت كبيرة، وهمس السائق وهو فى الطرف الآخر من القنطرة:

- هذا هو المقهى الجديد.. وإلى جواره مباشرة- كما ترين- الوحدة المجمعة..

- ورفعت «منال» عينيها المحتقنتين قليلاً، وشاهدت المبنى الأبيض الأنيق المكون من عدة أبنية صغيرة، وصهريج الماء المرتفع، ومن تحته صف من صنابير الماء المفتوحة ونساء يضعن جرارهن تحت الماء المتدفق، وسور من الأسلاك الشائكة يحيط المبنى ويجعله يبدو فى عينى منال وكأنه سجن رغم أناقة المبنى ونظافته ووقفت العربة لدى باب الوحدة المجمعة، ونزل السائق ثم فتح الباب الخلفى وخرجت منه منال منحنية بعد أن وضعت فوق عينيها نظارة شمسية سوداء جميلة، واستقامت واقفة، بينما أسرع أحد خفراء الوحدة وإحدى التومرجيات بحمل حقائبها إلى الداخل، وكلمات الترحيب الحية الخجولة تنساب من أفواه مَنْ تجمعوا بالقرب من العربة، وفى باحة المستشفى كان يقف الطبيب الجديد الذى وصل منذ يومين اثنين، وفى يده سلسلة فضية يلفها ثم يطلقها من حول إصبعه، كان سمينًا لحد ما، لم يستطع المعطف الأبيض أن يخفى كرشه الصغير المستدير، وبدا شعره المنسق الذى يلمع تحت أشعة الشمس، وكأنه يهتف بالتأنق، وبدت نظارته البيضاء فوق عينيه لتزيده أناقة ونظافة.

ووقف رواد المقهى المجاور مشدوهين، لقد نحّوا «الجوزة» جانبًا، وتركوا أكواب الشاى والقهوة باردة فوق المناضد الخشبية الصغيرة، ولاعبو الطاولة هم الآخرون تشنجت

أيديهم فوق القطع والزهر، كانت العيون كلها متجهة نحو امرأة جميلة فاتنة فاحمة الشعر، بضة، بيضاء البشرة، نحيلة الخصر، منتفخة الردفين، صدرها يبرز إلى الأمام فى كبرياء وتحد وكأنه منصة عالية، ذات أنامل رقيقة مخضوبة، فى يسراها ساعة ذهبية، وفى يمناها خاتم ذهبى وعدة أساور، وحول عنقها الممتلئ التف عقد ملون ينسجم تمام الانسجام مع قرطيها.

وصفق صاحب المقهى المعلم «حامد المليجى»، وقال بصوت عال:

هيه.. فرجت.. والله العظيم فرجت.. مرحبًا مرحبًا.. بأولاد مصر العترة.. يا صلاة النبى.. الجميل يحب لأجل النبى..

كانت صيحات المعلم حدًا فاصلاً بين الدهشة التى سادت الجميع، وبين بداية الحركة.. حركة الاستقبال التى يجب أن تكون لامرأة وحيدة.. غريبة وجميلة تنزل القرية لأول مرة.. واقترب الطبيب من باب الوحدة، ومن حوله مجموعة من الرجال منهم من يقوم بالعمل فى الوحدة، ومنهم بعض رجالات القرية ذوى السلطة والنفوذ، وارتسمت على الثغور ابتسامات المجاملة المعهودة، ابتسامات لا معنى لها، أو هكذا خيل إلى «منال»، وصافحها الطبيب

مرحبًا، وإن شابت جركاته بعض السمات التى تنبى عن الارتباك والتلعثم، وغمغم:

- رمزى إبراهيم. . طبيب الوحدة. .

- منال عبد المجيد. . الحكيمة. .

- أهلاً. . وسهلاً. .

وعاد زبائن المقهى إلى كركرة الجوزة، ولعب الطاولة، وارتشاف أكواب الشاى والقهوة، أو دس قطع صغير سوداء فى أفواههم يلوكونها فى استمتاع ولذة ونعاس، وأصوات هامسة تنطلق هنا وهناك «نسوان مصر مثل الملبن. . قشطة يا حبيبى. . مهلبية يا عالم. . هنيئًا لكم. . ياما نفسى أزور النبى. . وحدوه يا جدعان. . يا بدوى. . منك لله يا أم العز يا امرأتى يا. . شيخ الخفر. . »، بينما انطلق صوت مغنى الموال على أنغام الأرغول قائلاً:

والله إن صفا لى زمانى لأسكنك مصر

وابنى جنينة ومن جواً الجنينة.. قصر

ومن حوله تنطلق التأوهات، وصيحات الإعجاب السكرى. . المنتشية بالروح الجديدة والحياة الرائعة التى تدق أبواب قريتهم النائمة القابعة إلى جوار الترعة فى هدوء وسكون منذ سنين بعيدة.

ومن ناحية أخرى فقد كان الطبيب يقوم بدور تعريف «منال» إلى جمهوره وتعريفهم لها، ولم يلفت نظر «منال» أحد منهم، لا الطبيب نفسه.. ولا شيخ البلد.. ولا المعلم حامد المليجى صاحب المقهى الذى أتى مسرعًا.. ولا.. ولا.. إلا رجل غريب أصفر الوجه، فوق قرنية عينه اليسرى غيمة «نقطة» كما يقولون.. هذا الرجل قدّمه الطبيب إليها قائلاً: «عبد المعطى.. أو الباشكاتب عبد المعطى كما يسمونه هنا.. إنه رجل مهم.. مهم جدًا..».

وتلفتت «منال» فى استغراب إلى الرجل الضامر الأصفر، المنتفخ البطن، والذى يلبس جلبابًا من قماش رخيص ثم عادت إلى صمتها وأحزانها.. والغربة القاسية التى تلف حياتها الجديدة بالشحوب والأسى.



[٢]

استيقظ عبد المعطى مبكرًا فى اليوم التالى، وأدى فريضة صلاة الصبح على عجل، وجلس وحيدًا فى قاعته الخافتة الضوء، مفترشًا حصيرًا بالية، وإلى جوار الحائط ارتمت وسادته القديمة المتسخة، ولحافه الرث الذى يبرز من بعض تمزقاته ندف من القطن الذى يحشوه، وكانت هذه الحجرة إحدى الحجرات السبع فى بيت أبيه، فلعبد المعطى خمسة رجال إخوة يشتغلون بفلاحة الأرض، وعدد من الأخوات، ولإخوته عدد غير قليل من الأطفال الذين يملئون البيت بالضجيج والعويل منذ الصباح الباكر، كان عبد المعطى ينتظر طعام الفطور الذى لايخرج عن طبق من اللبن الرايب، وقطعة من الجبن، ورغيف جاف ثم يتبع ذلك بكوب من الشاى الأسود المركز، وبعدها يلف سيجارة من علبته الصفيحية الصدئة . . لم يكن عبد المعطى يفكر فى الطعام هذا الصباح.

ولم تشغل ذهنه الأوراق والأقلام، وهما يكونان الجانب الأكبر فى حياته. . فعبد المعطى لم يشتغل بزراعة الأرض مثل إخوته وأبيه العجوز، فلقد استطاع أن يحفظ القرآن فى صغره، ويجيد القراءة والكتابة، وبعض كتب الفقه القديمة، مما جعله يتصفح الجرائد ويفهم بعض ما فيها، وينال بين الفلاحين منزلة يحسد عليها، فهو الذى يكتب لهم الخطابات بأسلوبه الحلو، وهو الذى يدبج لهم الشكاوى والعرائض، ويشرح لهم قوانين وزارة الزراعة، والسلفيات ولائحة الجمعيات التعاونية، ودفع الضرائب وأسعار السماد والقطن، ويفتى لهم بعلم وبغير علم فى المخالفات التى يقع فيها الفلاحون ويتعرضون بسببها للغرامات والحبس. . والأخطر من هذا كله أن عبد المعطى إنسان مخيف فى القرية حقًا، إذ إنه يقف للعمدة ومشايخ البلد ومحصل الضرائب بالمرصاد، فإذا ما ضايقه أحد، أو عرقل له أمرًا، أو خيب له رجاء، لا يعدم عبد المعطى أية حيلة كى يوقع أحدهم فى ورطة. . القلم معه والأوراق. . والهيئات المسئولة ترحب بكل شكوى وتحقق فيها مما قد يؤدى إلى وقف. . المخطئ. . ولا ينسى أهل القرية يوم أن أوقع عبد المعطى شيخ البلد فى الفخ حينما أمسك به متلبسًا ببعض المخالفات التموينية الخطرة التى كانت كفيلة بأن تقذف به إلى السجن، هنا موطن الخطورة فى عبد المعطى، ولهذا

السبب نفسه أطلقوا عليه اسم «الباشكاتب عبد المعطى» . . الفلاحون يقولون عنه خطه مثل السلاسل الذهب . . شكواه لا تنزل الأرض . . الكمبيالة التى يكتبها أو العقد الذى يسطره فوق الخطأ والشبهات . . وإذا أقسم لا بد أن يبر بقسمه، انتظاره أكيد وإن طال الزمن . . دؤوب حقود شرس بطبعه . . يكره من هم فوقه حتى لكأنه يظن أنهم هم سبب فقره، وسبب مرضه الذى أصابه، ونصف العمى فى إحدى عينيه، والتضخم الذى يشوه مظهر بطنه .

والجميع فى القرية يسجلون له بالفخار كفاحه من أجل بناء المستشفى، وللمستشفى فى القرية تاريخ طويل منذ أن بدأ المشروع، وجمعت له التبرعات من سنوات ووضعها نائب الدائرة فى جيبه، ونشر فى الصحف وفى البرلمان أنه تبرع بالجزء الأكبر من المبلغ من ماليته الخاصة، واستغل الموضوع فى الدعاية لنفسه فى الانتخابات وخارج الانتخابات . . وطال الزمن وكثرت الوعود، وأهل القرية لا يجدون بارقة أمل . . حتى امتشق الباشكاتب عبد المعطى قلمه، ونشر أوراقه، وأخذ يسدد سهام شكواه للصحف وللمسئولين، فأثار ضجة كبرى . . تشبه الفضيحة، ثم انتهز فرصة قيام الثورة ووالى كفاحه ونشاطه حتى تحقق الحلم الكبير لأهل القرية . . وأصبحت الوحدة المجمعة والمستشفى حقيقة واقعة، ويوم

الافتتاح لبس «عبد المعطى» جلبابه الصوفى - جلباب المناسبات- وطاقية صوفية فى بياض اللبن الحليب، ومسبحة سمراء فى يده وعصاه السمراء الثمينة معلقة فى ذراعه . . ووقف فى حفل الافتتاح، وترنم بقصيدة طويلة على نمط القصائد التى كان يقرؤها فى كتب عنترة بن شداد وأبى زيد الهلالى، والتى يقول فى مطلعها :

شَرَّفْتُمُونَا وَحَلَّ الأنسُ سَاحَتَنا

والبِشْرُ يخْتَالُ تيّاهًا بِوادِينَا

ونالَ «شرشابة» السمحاء مفخرة

كانت لأهلِ التُّقَى عِزاً وتمِكينا

ورغم أن المثقفين فى القرية آنذاك ابتسموا فى سخرية لشعر عبد المعطى، وأشبعوه (تريقة)، إلا أن موسيقاها الطنانة، ومعانيها التى تشبه الطبل الأجوف قد اجتذبت أسماع الفلاحين، ولفتت أنظارهم، وصفقوا لها طويلاً، وكيف لا وعبد المعطى فى نظرهم هو الذى جعل المستشفى حقيقة واقعة، وهو المرهوب الجانب، والذى يفهم كل شىء ولا يُهزَم أبدًا . . ؟

لم يكن عبد المعطى فى ذلك الصباح يفكر فى شىء من ذلك كله . .

شيء واحد هز كيانه هزًا عنيفًا، وجرى فى روحه الظمآنة المتعبة مجرى الماء العذب حين ينزل أرضًا مقفرة، ولم يكن هذا الشيء سوى «منال»، منال الحكيمة الجديدة، المرأة الغريبة التى نزلت القرية، فطار اسمها إلى كل بيت، وعشقتها القلوب قبل أن تراها العيون، وتشوق إليها من لم يحظَ بمشاهدتها، حتى غدت فى ساعات قليلة وكأنها ملكة قد توجت حديثًا على عرش القرية التى تدخل فى عهد جديد وتبدأ حياة لا عهد لها بها، وتزحف المدنية والنور إلى بيوت سكانها وعقولهم وأرواحهم . .

كان أبشع ما يقلق عبد المعطى أنه أصفر . . عليل . . نصف أعمى، فإذا ما قارن نفسه بالطبيب الأنيق النظيف الذى يتدلى من عنقه مسماعه الذى توجف اليد خيفة أن تلمسه، وإذا ما تذكر الإخصائى الاجتماعى الذى حضر مع الطبيب بسحنته السمراء، وبناء جسده القوى، ونبراته الهادئة الواثقة، وذلك الشاب اللئيم صاحب النظرات الخبيثة، والذى يقوم بالتحاليل الطبية فى المعمل، ثم هؤلاء الطلبة الجامعيون فى القرية الذين يكثرون من الحديث عن الحب والنساء والسياسة والمدينة، كل أولئك أين يذهب منهم عبد المعطى؟ وهل تسقط «منال» كل هذه الاعتبارات، وتتناسى تلك الشخصيات وتهب نفسها لرجل فلاح عليل مثل عبد المعطى . . لا يلفت النظر . . ؟، وعندئذ صاح عبد المعطى :

- وكيف لا ألفت النظر؟ . . أنا الباشكاتب عبد المعطى على سن ورمح . . لولاى ما أتت منال إلى هنا، ولا نالت هذه الوظيفة، كفاحى هو الذى أوجد المستشفى من العدم . . وصيحاتى القوية هى التى أزعجت النائب السابق وأعوانه . . وهى التى سحقت طغيان العمدة وشيخ البلد . . أنا ابن القرية الأصيل . . إن وجودى هنا أمر ضرورى . . قد أكون عليلاً أو غير جميل . . لكنى ألفت النظر . . بمكانتى المرهوبة . . بحد قلمى . . أنا هنا صاحب الكلمة . . وهذا هو مقياس الرجولة والبطولة، ومتى كان الرجال يقاسون بالوجاهة والمظهر الكاذب؟ . . وهؤلاء الطلبة الجامعيون لم ينالوا من التعليم غير الطراوة والميوعة وسبسبة شعورهم، وأحذيتهم اللامعة التى تشبه فى لمعانها بشرة وجوههم التى يجرون فوقها الموس صباح مساء . . أما المشرف الاجتماعى أو موظف المعمل فكلاهما موظف . . خادم القرية ليس إلا . . ويوم أن ينسى أحدهم مهمته، والعمل المنوط به، فسأعرف كيف أؤدبه أو أقذف به فى الترعة أو إلى أى وحدة مجمعة أخرى . .

واستراحت نفس عبد المعطى قليلاً لتلك المبررات التى تواردت على ذهنه الساهد المكدود، وعادت إلى فكره صورة الفتاة الأنيقة الفاتنة، التى هبطت من السيارة بالأمس، واضعة منظارها الأسود فوق عينيها، وكل حركاتها تنبى عن الرشاقة

وخفة الروح . . وتوحى بالحياة . . بالبعث . . بالأمل المنعش الكبير . . آه . . لكم ظلت صورتها تلح عليه فى سهاده الطويل ليلة أمس . . وكم داعبت أحلامه فى اللحظات الخاطفة التى تسلل النوم فيها إلى عينيه . . إنها الحب والأرق والعذاب والمتعة . . مثل النساء اللواتى رآهن عبد المعطى ذات مرة فى دار عرض للسينما بمدينة زفتى الصغيرة . . وأين منها نساء القرية العجفاوات الغارقات فى السواد والوحل؟؟ هذه المرأة – منال– خلقت لرجل . . لِمَ لا أكون هذا الرجل؟؟ . . إن علتى من الممكن علاجها . . وعينى أيضًا فيها أمل . . فقد قرأت كثيرًا فى الصحف عن عملية ترقيع القرنية . . يا له من حلم!! وبعدها أستطيع أن أرفع رأسى فى كبرياء وثقة . . أنا فلاح حمش شهم قبل كل شىء . . فىّ القوة والحرارة . . والشباب . . وهز عبد المعطى ذراعه ثم ثناه وفرده، ليؤكد لنفسه زعمه بأنه قوى، وأفاق من هواجسه على صوت أمه :

– ماذا تعمل يا عبد المعطى؟؟ أتزاول الرياضة مثل رقعاء المدارس؟ . .

كانت تحمل على كفها طبق اللبن الرائب وفوقه عددًا من الأرغفة، وفى اليد الأخرى الشاى والسكر، ورفع عبد المعطى رأسه وحملق فيها، كانت عجوزًا شمطاء ملأت السنون وجهها بالتجعدات، ولعبت أصابع الشيب العابثة فى شعرها

فصبغته بالبياض، وتسللت إلى فمها فجعلته خاويًا لا أسنان فيه، وأحنت قامتها فجعلتها مثل علامة الاستفهام القلقة المرتعشة، شتان بين منال وأمه . . بين شرشابة والقاهرة . . ولم يجب عبد المعطى على تساؤلها بغير الصمت، بينما استطردت أمه مثرثرة :

– قالوا إن المستشفى بدأت عملها اليوم . . لا بد أن تكون أمك أول من يفحصها الطبيب . . أنا أم عبد المعطى ربنا يحرسه . . اللقمة إذا أكلتها تقف على قلبى هنا . . رأسى تفور دائمًا . . والسعال يقطع نفسى . .

وحاول عبد المعطى أن يضع حدًا لثرثرتها فقال :

– إن شاء الله . . إن شاء الله . .

– والله عشنا . . ورأينا المستشفى . . من كان يصدق؟ . .

وقطعت الأم حديثها فجأة، وتطلعت لعبد المعطى فى حسرة، ثم قالت :

– لكن لماذا تنسى نفسك يا عبد المعطى؟؟ صحتك لا تعجبنى أبدًا، من زمن طويل وأنت تهملها، يجب أن تعالج الكبد والمرارة . . كلما قلنا لك تزوج . . قلت صحتى لا تساعدنى على الزواج . . وكلما قلنا لك ابحث عن وظيفة، أبديت خوفك من الكشف الطبى، الآن تستطيع أن تعالج

نفسك . . لم يبقَ إلا أنت فى إخوتك . . يجب أن أفرح بزواجك قبل أن أموت . .

وازداد وجه عبد المعطى شحوبًا، وارتسمت على محياه سيما الألم والمرارة، كانت كلمات أمه مثل المسامير التى تنغرز فى قلبه الذى بدأ يتفتح للحب والحياة، وأوقعته هذه الحقائق البسيطة التى تتناثر من فمها إلى أرض الواقع الأليم، وبعدت به عن سماء الخيال والأمل، وملأت نفسه بالغضاضة والأسى، وفاض قلبه بالحقد والثورة، وأحس بخيبة أمل كبرى، وصرخ فى أمه :

- ما فائدة هذا الكلام؟ . . ضعى الطعام واخرجى . . دعينى وشأنى . . لا تنطقى بهذه الكلمات مرة أخرى وإلا . .

- اللهم أخزك يا شيطان . . ماذا جرى لك يا ولدى؟ إنى لا أفكر إلا فى مصلحتك . .

وتركته أمه وخرجت، وهى لا تدرى على وجه الدقة ما الذى أزعج ولدها، ولكنها التمست له العذر، فالمرضى دائمًا سريعو الغضب، سرعان ما يفقدون سيطرتهم على أنفسهم لأوهى الأسباب، ولم تفعل شيئًا سوى أن تمتمت بالدعاء له أن يكتب الله له الشفاء، ويهبه العمر الطويل . .

وأحس عبد المعطى بنفور تام من الطعام، كل يوم الطعام نفسه، اللبن الرائب والجبن والخبز الجاف وكوب الشاى الأسود؟ لا جديد أبدًا . . كل شىء ممل رتيب حمضى المذاق

مثل اللبن الرائب تمامًا، وأحيانًا مر كالشاى المركز . . حتى هذه القُلَّة التى تقبع خلف الباب وتبلل ما تحتها لم تتغير منذ عام تقريبًا، فوهتها مكسورة منفرة . .

ألا يوجد بالبيت شيء جديد، مثير يلفت النظر، يغرى بالاندفاع إليه، ويوقظ الإحساس النائم، الجاثم فى داخله كالظل الثقيل . . كشجرة الجميز العتيقة التى تربض أمام بيت أبيه؟؟

وهمّ عبد المعطى أن يهب واقفًا، عزوفًا عن الطعام وعن جو الحجرة المألوف وجو البيت كله، لكنه توقف . . يجب أن يأكل . . وكيف يعيش بدون طعام؟؟ منذ الآن يجب أن يفكر فى صحته، لشد ما كانت أمه صادقة فيما قالت، لكنه كان جافًا غليظ القلب . . لن يأكل اللبن والجبن فقط . . سيضيف بيضتين إلى فطوره . . ولن يأكل اللبن رائبًا . . سوف يتناوله طازجًا كما هو من ثدى الجاموسة، ولن يكون الشاى مركزًا بعد الآن، سوف يودع بخله ويستخرج الجنيهات التى ادخرها طوال السنين الفائتة . . صحته أهم من المال ومن المستقبل ومن الدنيا بأسرها . . آه . . سوف أدفع للطبيب ما يشاء . . إنى أحس بشيء خفى يحرضنى عليه . . شيء يشبه الكره . . لكن . . لكن يجب أن تكون علاقتى معه طيبة، لن أقبل أن يعالجنى مجانًا . . ليأخذ مالى ويهبنى الصحة . . وفى أعقاب الصحة تأتى السعادة . . ويأتى الحب .

وسمع صوتًا ينبعث مجلجلاً من ناحية مدخل البيت :

- يا سى عبد المعطى . . صح النوم . . ناموسيتك كحلى . . قم يا رجل واكتب الجواب للبنت . .

وعرف عبد المعطى صوتها على الفور، كان صوت «علية» زوجة المرحوم عباس أبو نجم . . تلك الأرملة اللعوب الفقيرة التى تطارده دائمًا ، وتتعلل بابنتها التى تعمل كخادمة فى طنطا ، ولا تكف عن كتابة الخطابات إليها ، وشعر عبد المعطى بالتقزز والنفور منها ، وهمّ أن يخرج إليها ويطردها ويمتنع عن كتابة أية خطابات لها ، لكنه يجب ألا يفعل ذلك إنه الآن فى حاجة ماسة إلى المال . . المال هو السحر الذى سوف يغير حياته ويهبه الصحة ، ويجعل «منال» قريبة المنال منه .

- ادخلى يا علية . . ادخلى يا طويلة اللسان . .

واستطاع عبد المعطى جاهدًا أن يجعل المرح يسود جو المكان ، وأن يمد حبال الأمل بالنسبة لعلية ، وتحمل غزلها السمج ، ومداعبتها الثقيلة ، ألوف السلام ، وملايين التحية ، والقبلات الحارة ، كلها كتبها لابنتها حسب رغبتها ، كانت ترغى وتزيد وتكرر وتعيد ما قالته ، وخاصة «الشيك» الذى تنتظره «علية» من بنتها ، كانت تردده مرة كل سطرين ، وعبد المعطى صابر محتسب . . والصبر طيب ، ويبدو أن علية قد

سُرَّت لبشاشة عبد المعطى وابتسامه لها، وسعة صدره لكل ما تفعله، والدليل على ذلك أنها أسقطت فى يده بعد كتابة الخطاب خمسة قروش كاملة . .

وحينما خرجت من لدنه تنفس الصعداء، كانت عبئًا ثقيلاً على قلبه رووحه، ازداد ثقلها بعد التطورات الأخيرة التى حدثت لعبد المعطى، وتمتم عبد المعطى: «هذه المتصابية الخربة . . الحمقاء . . تريد أن تتزوجنى . . يا للمهزلة!!! لكن والله تشكر فيها الخير، لم تقل مرة أنى عليل أو . . » .

ونفخ عبد المعطى فى غيظ، ثم هبَّ واقفًا، وشىء كالخدر يسرى فى جسده، وشعر- أو هذا خيل إليه- أن الدم يجرى حارًا دفاقًا فى عروقه، وحسب أن وجنتيه قد توردتا من أثر الحرارة التى أشعلت روحه وجسده، وخيال «منال» الوديع الصافى، بوجهه المثير، وجوه ذى الأريج والشنوة الغريبة يملأ عالمه وخياله، وقصد من فوره إلى حيث يعلق جلبابه الصوفى فوق مشجب على الحائط، وإلى جواره عصاه الثمينة، ومسبحته العريقة، وطاقيته الصوفية البيضاء، وغمغم وهو يرتدى طاقمه الفخم . . طاقم المناسبات الكبيرة . .

- سوف أذهب إليها الآن . . ألم يقل لها الطبيب بالأمس، أنى مهم . . مهم جدًا؟؟ .

●●●

[٣]

قال الطبيب وهو يجفف يديه بعد غسلهما فى وعاء به «ديتول» مخفف :

– فى بحر عام واحد يجب أن أمتلك سيارة فاخرة تليق بى كطبيب ، كما يجب أن يكون معى مبلغ كبير من المال . .

فقالت منال وهى تبتسم :

– أحلام الأطباء الجدد مجد . . ومال . . وعربة فاخرة .

– وماذا فى ذلك؟؟ نحن ندفع الثمن من دراستنا الصعبة الطويلة ومن عملنا الشاق فى هذه الغربة ، وسط الفلاحين والبعوض والتراب :

فقالت ساخرة :

– ووسط هدايا الأوز والحمام والبط التى تتدفق عليك صباح مساء . .

وتطلعت منال إلى الطبيب، كانت عيناه تشعان إشرافًا وسعادة، ويبدو أن صحته قد تحسنت كثيرًا، وانسجمت تمامًا مع جو الريف ومع الربح الكبير الذى يتدفق فى جيوبه، والهدايا المتتالية التى تطرق باب مسكنه من آن لآخر، وبدا جليًا أمامها أن الطبيب لا يفكر كثيرًا فى جو القرية.. جو القرية الذى يعيش فيه، ولا يشعر بشىء من الضيق أو الملل، ولم يذكر مرة أنه قد تشوق إلى أهله فى الإسكندرية، ولم يثر مرة حديثًا عن ذكرى حب قديم، أو امرأة تركها وراءه فخلفت في قلبه لوعة، أو هيجت شجنًا، كان الطبيب فى نظرها إنسانًا جامد الحواس.. غارقًا فى أحلامه المادية..

أما حديثه عن البعوض والفلاحين والتراب فهو من قبيل التأنق الذى يجب أن يتحلى به رجل له مركزه، وغمغمت منال:

- «ألا تحس بشىء من الفراغ..؟».

قهقه ساخرًا، وقال:

- أى فراغ تقصدين؟ إن ساعات النوم نفسها لا أهنأ بها.. فى الصباح تتراكم أفواج الفلاحين أمام باب العيادة الخارجية.. بأطفالهم وقاذوراتهم وسعالهم ووجوههم الكالحة.. فإذا ما انتهت العيادة جاء دور الفحص الخاص لمن

يدفعون الثمن . . أقصد الزبائن الذين يتعامل معهم الباشكاتب عبد المطعى . . إنه وسيط خبيث . . يأخذ أجرة الكشف الطبى ويحتجز لنفسه السمسرة المعهودة . . عشرين فى المائة . . يا لهذا الرجل ! ! إنه يعرف وضعى القانونى . . ويدرك أن ما أفعله أمر خارج ، ومن ثم أهتبل الفرصة السانحة . . وحتى لو لم يكن وسيطًا لكان من الضرورى أن أسكت قلمه الشرس وأوراقه التى لا ترحم . . وشكاواه التى كان من المستحيل أن أنجو منها . . والمهم . . لا نكاد نفرغ من العمل إلا فى ساعة متأخرة من النهار ، فإذا ما جاء الليل . . كان النوم متقطعًا مرهقًا . . هذا عنده مغص كلوى حاد . . وتلك امرأة تلد ومتعسرة فى الولادة . . حالة نزيف دموى خطرة . . إلخ . . إنها يا عزيزتى منال دائرة مفرغة . . مزعجة . . مملة . . لكن الاستغراق فى العمل ، وعملى الخاص الذى يدر بعض المال ينسيانى ما كان من المتوقع أن أقاسيه من فراغ وغربة وألم . . هذه التوائم الثلاثة لا وجود لها إلا فى خيال الشواذ والحالمين . .

فتنهدت منال فى مرارة . . وخاصة عندما استعادت ذكريات الأيام القلائل التى قضتها فى القرية ، اليوم يبدو - رغم كثرة المشاكل - طويلاً سقيمًا ، والجمود يصبغ كل شىء ، وأصبحت القرية هى كل عالمها ، والأحاديث لا تدور إلا حول المرضى ، والمشاكل التافهة الصغيرة التى تحدث من آن لآخر ،

في الصباح يرسل إليها المعلم حامد المليجى الشاى بالحليب، وأقراص الطعمية الساخنة والخبز الطرى، فتمتنع وترفضه، لكنه يهرول إليها، ويظل يدور حولها ويبتسم لها، ويؤدى حركات تمثيلية متقنة ترغمها على الضحك وقبول الكرم المستمر، وشيخ البلد الحاج على من آن لآخر يتحفها بكمية من القشدة أو اللبن الحليب والفطير الشهير، وعشرات العيون التى تلاحقها فى غدوها ورواحها طول النهار وجزء من الليل، والأساطير والأقاصيص الكثيرة التى يتناقلونها عنها وعن حياتها الخاصة والعامة.. والتى يرويها لها الباشكاتب عبد المعطى.. أجل الباشكاتب عبد المعطى ذلك الرجل الغريب الذى يعاملها بطريقة عجيبة.. يلاحقها دائمًا.. لا تكاد تذهب إلى حجرة «الغيار» حتى تراه فى ذيلها، فإذا ما صعدت إلى عنابر المرضى، والتفتت وراءها أبصرت به فى أعقابها.. كان مثل حرس خاص لها.. ينقل إليها آخر الأنباء، ويزودها بكل ما تحتاج إليه، كان هو الرجل الوحيد الذى استطاع أن يكسب ثقتها، فتأمن له، تتبسط معه فى الحديث ولا تتحرج من شىء أمامه.. كان فى نظرها مثل الخصى الذى عاش قديمًا مع حريم السلاطين والأمراء، لم تكن تظن أن فى قلبه شعلة من نار، وأن كيانه يحترق بعاصفة من الحب تختفى وراء إهابه الأصفر، ووجه الجامد الملامح، وحتى لو عرفت ذلك فلن

تكون سوى مادة جديدة للتسلية وإزجاء الوقت، ونادرة تتفكه بها من آن لآخر، فقلبها لم يزل كالطائر المحلق فى جو السماء.. لا يدرى أين يتخذ له عشًا.. حبها فى الماضى والحاضر.. عبث وتضييع وقت.. مجرد لعبة.. مثل لعبة الورق، أو مثل الطاولة.. ليس إلا.. مثلاً.. ذلك الطبيب.. يا له من رجل.. أحيانًا يمسك بيدها اللدنة ويضغط عليها، أو يقرصها.. وذات ليلة والليل يغطى القرية.. و «الكشك» حال إلا منهما فى انتظار حالة ولادة، اختطف منها الطبيب قلبه.. كانت أنفاسه لاهثة.. ساخنة وكانت هى شبه نائمة.. التعب والنوم والذكريات والفراغ والملل كانت تحتل رأسها.. وأحست بشفتيه على ثغرها فدفعته عنها.. لم يكن دفعها عنيفًا تمامًا، ومن ثم قال الطبيب:

- إنك تريدين مزيدًا من الفراغ والغربة..

- لكن هذا لا يصح..

- وهل يصح أن نعيش فى منفى.. ولا نشعر أننا بشر؟.

- قلت: إنك لا تشعر بفراغ.. الوقت والمال والمجد يملآن حياتك»..

- لا أعنى ذلك تمامًا يا عزيزتى.. مهما امتلأ وقتنا فهناك جانب فينا يشعر دائمًا بالفراغ والضياع أعنى تلك الروح التى

تسكن أجسادنا، إنها لا تمتلئ بمثل هذا النوع من الحياة . .
أظنها تحتاج إلى لمسات سحرية . . إلى أنامل عذراء حلوة
تهدهدها . .

فابتسمت منال وقد توردت وجنتاها :

- إنك فى لحظة تجلٍ . .

- بل فى نوبة حمى أذهبت عقلى . . أعطنى شفتيك . .

واحتواها بين ذراعيه فى قسوة، وشفتاه تدوران فوق
وجهها، ومنال تتململ تحاول أن تحرر نفسها من ذراعيه
الغليظين اللذين يكسوهما شعر غزير، والعرق يسيل فوق
جبينه الذى يكاد يتفجر منه الدم . . ورائحة العرق تنبعث إلى
خياشيمها فتهزم مقاومتها وعنادها . . كان رجلاً . . وكانت
امرأة . . وإن لم يكن بينهما فيما مضى حب ماضٍ عميق
الجذور . . واستسلمت له غير آسفة . . تمامًا مثلما فعلّت ذات
مرة وهى فى السنوات الأولى فى مدرسة الحكيات بالقصر
العينى . . ذات ليلة وكانت نوبتجيتها فى المساء . . وطبيب
امتياز غض جذاب . . شدها إليه، فخافت أن تصرخ أو
تستنجد . . فنامت على صدره . . وبدا الأمر بعد ذلك أمراً
عاديًا لا يثير ألمًا . . بل يثير ذكرى حلوة تسكر . . ومثلها كانت
فتيات مدرسة الحكيمات . . لكل منهن قصة حب، ومن ليست

لها قصة كان عليها أن تفتعل حبًا . . وتسهر الليل وتستغرق فى التفكير . . وتتأوه وتتنهد، وتوهم الجميع بأنها غارقة لشوشتها فى الحب، حتى لا تكون أمام زميلاتها ناقصة .

●●●

وأفاقت منال من أحلامها على صوت عبد المعطى الذى ظهر فجأة، وهو يقول وقد رفع يده وفيها خطاب أزرق يقرأ غلافه :

- الآنسة منال عبد المجيد . . حكيمة بمستشفى الوحدة الجمعية بشرشابة . . خصوصى . . ليدها .

وانتفضت منال واقفة وموج متلاطم من المشاعر يزخر به قلبها، واندفعت إلى عبد المعطى ودموع الفرح تشرق فى أهدابها السمراء الجميلة، وكلمات أفلتت منها «يا حبيبتى يا ماما . . وحشتينى يا حبيبتى . . »، واختطفت الخطاب منه، وقبلته فى حرارة ثم ضمته إلى صدرها فى حنان بالغ، والطبيب ينظر إليها فى بلاهة، وعبد المعطى قد بقى مكانه وكأنه أتى ما لم تستطعه الأوائل والأواخر، وحقق عملاً رائعًا يحسد عليه، ويجعله فى مقدمة المعجبين والعاشقين . . وأخذ يفرك يديه فى سعادة، وفمه قد اتسع، وانفرج عن أسنانه البيضاء اللامعة، وبقى هكذا لحظات يتمنى لو طالت أبد الدهر . . ومنال تغمض عينيها وتضم الخطاب إلى صدرها مرة

وإلى شفتيها مرة أخرى، وعشرات الانفعالات تتوارد على صفحة وجهها النابض بالحياة والروعة . . ثم انفلتت من الحجرة، وذهبت إلى مسكنها لقراءة خطاب أمها فى جو هادئ لا يقطع عليها استمتاعها تحيات المعجبين بمناسبة وغير مناسبة، أو استفسارات المرضى التى تبلغ فى كثير من الأحيان حد الإلحاح السمج والغباء المتحكم، ومداعبات الطبيب التى لا تنتهى، وما كادت تخرج حتى رأت عبد المعطى يلاحقها :

- إلى أين؟؟ .

- إلى حيث تذهبين . .

- عجيب أمرك . . هذا سكن خاص بالنساء . .

- وماذا فى ذلك؟؟ كيف أتركك هكذا وأنت فى هذه الحالة . .

فأمسكت بيده وأوقفته ثم قالت وهى تقرصه من خده الشاحب :

- لا . . هذا عيب . . وأنت سيد العارفين . . لا يقرب الرجال مثل هذا المكان . . انتظر حتى أعود . .

وبقى عبد المعطى فى مكانه لا يغادره، ومن آن لآخر يتحسس خده الذى قرصته منه، ثم ينظر إلى يده التى لامستها، ويذوب فى مشاعره الوردية، ويخيل إليه أنه يلقى

برأسه على صدر حنون دافئ فيه حب وحياة وسكينة، ويتسع فم عبد المعطى بابتسامه تنبع من أعماقه، وتشرق عيناه دموع الفرح، ويدور والشمس من حوله تنير المكان وكأنه رجل جديد.. أين ذهبت تلك الأيام.. الأيام التى لم يكن له فيها عمل سوى أن يفكر فى أعدائه والذين أهانوه أو سخروا منه؟؟ وأين الليالى الطويلة التى لم يكن يحلم فيها بغير تدبيج الشكاوى القاسية، ورفعها للمسئولين، والأخذ بخناق كل من أخطأ، وبث الذعر والقلق فى نفوس الكثيرين.. ها هو النهار كله يمر لا يغادر المستشفى، فإذا جاء الليل عاد إلى حجرته وأغلقها على نفسه مستمتعًا بالتفكير فى منال، لقد أدمن التفكير فيها حتى أصبحت لديه كل شىء.. وتكومت أوراقه وعرائضه فى ركن قصى لم يعد يقترب منها، وجلبابه الرخيص المخطط قد اتخذ مكان جلبابه الصوفى فوق المشجب، لقد أصبح يلبس طاقم المناسبات كل يوم، وكيف يرضى لنفسه أن يقابل الست منال وهو فى ثوب رخيص لا يليق؟؟ وعندما ينام يطبق جفنيه على صورة أحلى شىء فى الوجود، وإذا ما أشرق الصباح تناول فطوره على عجل، وهرول إلى المستشفى وشىء يجذبه إليها جذبًا.. والناس يقولون إن عبد المعطى قد أصبح فى حال غير الحال، فالطبيب يغدق عليه المال الوفير، والمرضى يوسطونه فى شئونهم

العلاجية، ومنال تستخدمه فى قضاء حاجاتها ولا شك أنها تعطيه بعض القروش، كانت نظرتهم إليه فى حدود كسبه المادى، أما الحب.. فلم يكن أحد يفكر فيه.. كأن شيئًا لا يخطرهم على بال، ومسألة جمال منال وحبها أمر مشاع.. الكل يعشقون جمالها، يحبونها ويبتسمون لها، ولا يرفضون لها طلبًا.

وحينما عادت منال بعد أن قرأت خطاب أمها فى عزلتها.. كان عبد المعطى لا يزال واقفًا وأضواء السعادة تتراقص فوق ملامحه الصفراء، والبسمة الكبيرة تعلو شفتيه، وقلبه يدق فى سعادة فياضة دقات متلاحقة أرهفت شعوره، وجعلت روحه أكثر شفافية، وأكثر تحليقًا فى الأجواء الوردية السماوية، وصحا من خواطره على منال وهى تقذف إليه بقطعة فضية من ذات الخمسة قروش وتقول:

- أشكرك من كل قلبى..

وهبط عبد المتجلى لتوه من الأجواء الوردية، وارتطمت أحلامه المعلقة بالأرض الصلبة القاسية التى يغطيها التراب والطين، وانطفأت الابتسامة من فوق شفتيه، وأظلم وجهه، ولفته كآبة قاسية، والتفت إليها وهى تمرق إلى جواره مندفعة إلى المستشفى:

- ما هذا يا ست منال؟

- هذا من أجلك تستاهل كل خير يا عبد المعطى . . ألا تتصور أن هذا الخطاب الذى أحضرته قد رد إلىّ الروح . .

وأسرعت ناحية المستشفى وبقى واقفًا فى جمود . .

إنها تعطيه «بقشيش»، تمامًا مثلما تفعل مع خفراء المستشفى والتومرجية وفقراء القرية الذين يأتون لكل موظف أنيق، ويقولون فى ضراعة: «حاجة لله يا ست . . » يا لله!! أصبح عبد المعطى فى عداد الخفراء والتومرجية والمتسولين!! «سامحك الله يا ست منال . . ما كنت أظن أنك ستفعلينها ذات يوم . . أنا أريد قلبك وأنت تصفعيننى هذه الصفعة . . تعطيننى قطعة فضية يا ذات القلب الذهبى . . ».

ودار عبد المعطى بنظراته الكليلة الحزينة فى أرجاء المبنى الكبير، مدرسو المدرسة الابتدائية يروحون ويجيئون، والأطفال الصغار يحملون حقائبهم ويتسابقون أو يتصارعون . . والمشرف الاجتماعى يمشى فى تؤدة ووقار مألوفين، ولمح أيضًا منال تنتقل من العيادة إلى القسم الداخلى وإلى جوارها يمشى الطبيب وهو يبتسم لها من آن لآخر، ومرت مسرعة- هى وهو- كالظل الخفيف النضر الذى يخلف وراءه رائحة وجلالاً وذكرى، وحينما تواريا داخل القسم

الداخلى، جر عبد المعطى هيكله وحطامه وعاد أدراجه ناحية باب المستشفى والهم الثقيل يجثم فوق قلبه وروحه، وأحس أنه فى تلك اللحظات أكثر شحوبًا وأشد إدراكًا لما يعانيه من مرض. . واعترضت طريقه امرأة باكية قائلة:

- سى عبد المعطى. . فى عرضك. . الولد محموم. . جسمه يغلى. . خذ الكشف. . وهات الدكتور حالاً. . اعمل معروفًا. .

ونحاها عبد المعطى جانبًا، ومضى فى طريقة كالذهول وهو يغمغم:

- اذهبى إليه يا امرأة. . الطبيب هناك. . الشافى هو الله. . الشافى هو الله. .

●●●

[٤]

توثقت العلاقة فى الأيام التالية بين الست الحكيمة، والمعلم حامد المليجى صاحب المقهى الريفى المجاور للوحدة، وكان لهذه العلاقة المتينة أكثر من سبب، فمنال منذ أن نزلت القرية أفسح لها المعلم فى قلبه منزلة كبيرة، وأصبحت وجبة الفطور والشاى باللبن فى الصباح تقليدًا متبعًا، وفى الوقت نفسه كان المعلم حامد هو متعهد توريد التغذية، وتلك عملية شائكة صعبة لن تذلل وتسير على ما يرام إلا إذا كانت علاقته مع الطبيب والحكيمة غاية فى القوة والمتانة، ولو أدى الأمر لأن يكون المعلم سخيًا . . سخيًا جدًا . . يحاول أن يشترى رضى من بيدهم الأمر، وكانت منال هى أهم شخصية بالنسبة لهذا الموضوع . . نقطة أخرى جديرة بالاعتبار وهى أن المعلم حامد المليجى منذ أن رأى منال لأول مرة مالت نفسه إليها، وبات هو الآخر أسير هواها، مثل عشرات غيره من أهل القرية أولئك الذين لم يجدوا سببًا من أسباب الاتصال بها، أما منال فقد

وجدت فيه رجلاً أنيقًا رقيقًا خفيف الظل، يحافظ دائمًا على أن يحلق ذقنه كل صباح، ويرتدى جلبابًا حريريًا أبيض، ويحيط موكبه كلما راح أو جاء عدد من الرجال . . من الأتباع، وكان سريع النكتة، فى عينيه السوداوين سحر وقوة لا تقاومان، ووميض عجيب، وكانت منال إزاء هاتين العينين متناقضة المشاعر، أحيانًا تذوب فيهما روحها كامرأة ناضجة تصرخ فيها الأنوثة، وأحيانًا أخرى تخاف بريق نظراته، وكان خلاصة هذا كله أن المعلم الشاب الذى لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره بات أثيرًا لديها، تحب مجلسه ودعاباته، وتثنى على غيرته عليها وهو يدفع عنها المعجبين وأدعياء الشهامة والرجولة، ويقطع عليهم سخافاتهم وغزلهم السمج من آن لآخر . .

جاء المعلم حامد ليورد الأغذية كالمعتاد، وطلب من الطبيب أن يصحبه كى يوقع على كشف الاستلام، وقال الطبيب :

- أنا مشغول الآن، وأعتقد أن منال سوف تتسلم الغذاء نيابة عنى . .

فالتفت المعلم إليها قائلاً وهو يبتسم ويحرك يديه وأصابعه بطريقة تمثيلية :

- نهارنا نادى . . يا صباح الفل والياسمين . .

وأخـذت منال تمر بين الأقـفـاص والجـوالات المـتلئـة بالخـضـراوات والأرز والفواكـه والأرغـفة والبيض واللحم، كانت تتهادى فى بطء كالوردة اليانعة، خطواتها خطوات أميرة يحيطها جو المهابة والسحـر والجمـال، والمعلم أمامـها مثل البهلوان تمامًا: «هذا البيض يا ست طازج. . اللحم ريقها مثل العسل. . الخبـز طازج أربعة وعشرين قيـراطًا. . الباذلاء لوز. . جواهر»، يتعمد المعلم أن يمسك بيدها ويشدها فى رقة ليريها هذا، ثم يؤكد لها أن ذلك من الأطعمة لا عيب فيه، ويختطف عنقودًا من العنب ويقسم بالله أن تتناول منه حبات حتى تتأكد من صدق كلامه، ويظل المعلم هكذا ينثنى وينفرد، ويميل برقبته ثم يقيمها، ويحرك حاجبيه فى سعة دون تكلف، ونظراته النارية التى تذيب أنوثتها أحيانًا وتخيفها أحيانًا أخرى تتماوج كالرادار، وجلبابه الحريرى الأبيض يرتجف فى نعومة، وترعشه مسّات النسيم الهادئ، والمعلم بوجهه اللامع الحليق، وسمْته المتناسق التقاطيع، يبدو رجلاً ريفيًا أصيلاً، صوته صوت رجل، وذراعه السمراء لو وضعها فى وسطها لبدت وكأنها طوق النجاة، لشد ما أعجبت به منال، وأتاحت نفسها إليه، لكن شيئًا ما كان يقف بينهما، شيئًا مميزًا يظل قائمًا فى تحدٍّ مثير، هذا الشيء هو غالبًا حاجز يقف بين القرية والمدينة. . بين شرشابة والقاهرة، بين فتى الريف صاحب

الجلباب الحريرى الفضفاض وفتاة المدينة التى ينحسر ثوبها إلى ما تحت ركبيتها وترفع رأسها وعينيها الجريئتين إلى أى وافد، دون أن يخالطها شيء من خجل، أو يشوب تصرفاتها بعض الارتباك . . وهكذا كانت منال تبتعد عنه وهى تظن أنها تقترب منه، وهو الآخر كان أضعف . . أعنى . . أجبن من أن يرفع معوله ويحطم الحاجز القائم بينهما، وبقى الحال هكذا رغم الصبى الذى يحضر لها فطور المعلم كل صباح . . لم تكن تحس مثل هذا الفارق أو الحاجز القائم بينهما مع الطبيب، كان الطبيب أقرب إلى نفسها بثقافته ونشأته فى المدينة، وسرعة اندماجه معها، لم يكن هناك غير خجل مصطنع وستار شفاف بينهما، وما أيسر أن مد الطبيب يده فى لمح البصر ومزق الستار الشفاف ذات ليلة فى بساطة عجيبة، وحينما حاولت أن تقاوم نزواته، وتفلت منه قبض عليها بذراعيه والليل ساج، والنوم يداعب أجفانه والفراغ الممتد امتداد الليل تحول إلى مشاعر هائجة وقبلات عنيفة- لا بين حبيب وحبيبته- ولكن بين رجل وامرأة . . كانا غريبين فى قرية نساؤها خوف وخجل، ورجالها احتشام وانشغال بلقمة العيش .

●●●

قالت الحكيمة للطبيب :

- إن المعلم حامد يصر على أن يصحبنى إلى بيته . .

فهز الطبيب رأسه كمن يزعم أنه خبير ببواطن الأمور، وقال:

- لماذا؟؟

- زوجته حامل ويريدنى أن أراها..

- أعتقد أن هذا عملى أنا يا منال..

- الأمر أمرك..

وسكت كلاهما، بينما كان المعلم حامد فى ذلك الوقت ينظم بيته، ويفرش الملاءات النظيفة البيضاء فوق السرير، ويدفع زوجته أو يركلها- رغم أنها حامل- ويطلب منها أن تسارع بتنظيف البيت، وتحبس الدجاج فى أقفاصه، وتجفف العطن المنبعث من تحت الجرار المتلئة، وتقذف بتلك القلة المكسورة إلى الجحيم، وصرخت زوجته فى ضيق:

- ما هذا كله يا معلم؟ وزير حاضر لزيارتنا ولا..

- اخرسى قطع لسانك.. قليلة الأدب.. حتى أنت يا أم العز.. يا فقر يا بنت الـ..

وأهوى بكفه الغليظة على قفاها، فاستمرت فى عملها فى صمت، ومراجل الغضب العنيف تثور فى نفسها، وتلفح كيانها، لكن ماذا تفعل؟؟ إنها دائمًا تؤثر الصمت وتقبل الهزيمة

كلما دب بينهما خلاف، أو نشبت بينهما معركة، والمعلم على حد تعبيرها «مسكين وابن حلال . . ورجل طيب» رغم حدة مزاجه وقسوته عليها . .

وفى المستشفى كان الطبيب لا يزال جالسًا، ومنال إلى جواره صامتة بعد ذلك الحديث القصير عن المعلم، وهمَّ الطبيب بالقيام أخيراً، ثم قال:

- يا منال يجب أن تعرفى حقيقة واقعية . .

- هى . .

- هى أن المعلم حامد المليجى . . رجل مريب . .

- كيف؟ .

- الناس هنا لا يعرفون له بطنًا من ظهر . . ثم . . ثم إنه .

- ماذا يا دكتور؟

- من كبار تجار المخدرات فى المنطقة . . هذا الرجل الرقيق الباسم الناعم الملمس يخفى وراء سماحته ورقته قلبًا جسوراً لا يرحم إنهم يطلقون عليه «الوحش» . . لعلك تساءلت ذات يوم لماذا أتعامل معه وأقبل هداياه التى ليست إلا رشوة مقنعة . . بصراحة أنا غريب . . ليس لى عصبية . . والغرباء لا يستطيعون أن يمسحوا عن نفوسهم مشاعر الخوف والألم .

- أتخافه؟

- ولِمَ لا؟؟ أنا هنا أشترى رضى الناس أيضًا. . أجيب مطالبهم فى حدود طاقتى ومنفعتى. .

- نحن فى مجتمع له نظمه وقوانينه. . ولن يأكل أحد أحدًا. .

- هذا صحيح يا منال. . لكن حامد وأمثاله ما زالوا يعيشون بعقلية قديمة نوعًا ما. . يظن أن المال يصنع المستحيل. . وكبار الموظفين فى هذه المنطقة يحمون أمثاله منذ زمن بعيد. . وهذا تقليد قديم لأسباب سياسية وحزبية عميقة الجذور. .

وامتلأت نفس منال بالهواجس، وشعرت بخوف غامض يسرى بين جوانحها، وتصورت الريف بأهله الودعاء البسطاء مكمنًا للغدر والرهبة والتعقيد، لم تكن تظن ذلك، كانت تحسب نفسها ستكون دكتاتورًا صغيرًا تبسط سلطان جمالها على الجميع وتحرك جموعهم كيف شاءت، وقالت منال للطبيب:

- أصبحت أخاف هؤلاء الناس. .

- اجتمعت لديك آلام الغربة والخوف. .

- بالضبط. . هذا ما حدث. .

فهز الطبيب رأسه، وقال فى نبرات رزينة:

- هنا فى القرية حكمة قديمة تقول: «امشِ فى طريقك المسقيم يحتار عدوك فيك . . ».

- وهل من الاستقامة أن نقبل الرشوة المقنعة . . ونصير عبيدًا للمعلم . .

فضحك الطبيب . . ثم أخرج سيجارًا وأشعلها وهو يقول:

- الاستقامة مسألة نسبية . .

- ماذا تعنى؟؟

فلم يجب، بل أخذ يبعث بأنفاس الدخان فى شىء من الشراهة، ثم غمغم:

- لن يمر وقت طويل حتى تصبح من أهل القرية . . هؤلاء الفلاحون سريعو الألفة والاندماج، والطبيب عندهم مثل شيخ الطريقة الصوفية . . رجل يهب الشفاء . . فيه روح من روح الله.

•••

وفى المساء جاء المعلم حامد، وقصد لتوه المكان الذى تجلس فيه منال فى القسم الداخلى بالمستشفى جوار المرضى، كانت تجلس على كرسى أبيض أمام باب العنبر، والضوء الباهت يشيع سكونًا وسقمًا فى النفوس، وعدد من الفلاحين الشاحبى

الوجـوه يسـتلقى على السـرير فى ترقب، وعـلامـات الألم والغضاضة ترتسم على محياهم:

- مساء الخير يا ست..

- مساء الخير يا معلم..

- هل نسيت الميعاد؟؟

- كلا.. لكن..

- لكن ماذا؟؟ المعلم حامد لا يقبل عذراً..

- الطبيب قد يسافر الليلة، وليس مع المرضى أحد..

- قـد يكون هذا عـذراً وجيهـًا.. وهو لـن يسـافر.. مـاذا يقـول الفـلاحون عنى وقد هيـأت بيتى وكـأنه يسـتقبل الليلة عروسـًا؟؟ لا شك أنهم سوف يضحكون منى.. ويجعلوننى مناط الهـزء والسـخرية، والمعلم حـامـد لا يصح أن يكون كـذلك.. ثم إن زوجتى متعبة.. وأم العز غـالية عندى جداً، ومن يتسبب فى إحراج أم العز والإساءة إليها يحرجنى ويسىء إلىّ أنا الآخر..

ورفـعت عينيهـا إلـيه، كـانت الابتسـامة الواثقة تتماوج فوق ثغره كما يتماوج ثوبه الحريرى، وعيناه ترسلان نظراتهما المثيرة المخيفة فى الوقت نفسه، ووجهه المستطيل القمحى اللون يبدو

تحت الضوء كتمثال من النحاس صامد. . صلد. . وكأنه يقول لها: إذا تزحزحت الصخرة فلن أتزحزح قبل أن آخذك معى، ولندائه الصامت فى نفسها رنين قوى، وفى روحها استجابة لا تغلب، وهبّت واقفة:

- سآتى معك يا معلم. .

وفى شوارع القرية وحاراتها المظلمة كانت تدب أربعة أقدام؛ المعلم وإلى جواره منال تسير مرفوعة الرأس، وكأن طول الإرهاق والتفكير والإشفاق قد أورثتها مشاعر جديدة. . مشاعر عناد ولا مبالاة. . وعيون من خلف النوافذ والأبواب وفى الطريق العام كانت تسترق النظرات، الأميرة الرقيقة تسير فى حماية «الوحش». . جوهرة يوشك ثعبان أن يخنطفها. . الأصابع الملوثة بالحشيش والأفيون قد تلوث هذه البشرة الناعمة الرقيقة التى صنعتها القاهرة بأنغامها وجمالها وروعتها. . مدد يا سيدة زينب يا أم العواجز. .

وفى الطريق كانت أضواء باهرة تأخذ بالأنظار، والرصاص يزغرد فى جنبات السماء، وجموع من النساء والرجال والأطفال يحتشدون حول رجل فقيه يلبس عمامة ويقوم بشعائر الرباط المقدس كى يتم الزواج بين اثنين، وأصوات نساء ترتفع بالغناء:

«هاتوا الـدهب وكـيّلوا بالكـيلة..

ما هش خـسارة فى بيـاض الليلة..

هاتوا الدهب وشعتروا على الأرض..

ما هش خسارة فى بياض العرض..»..

وقال المعلم:

- يجب أن ننحرف عن هذا الطريق . .

- لماذا؟؟

- حتى لا يرانا الناس . .

- وماذا فى ذلك؟ نحن لا نسرق . . والطريق العام من حق الجميع . . كل واحد فى حاله . .

فابتسم المعلم فى سذاجة مصطنعة، وقال:

- معقول، لكن ماذا تفعلين وعيونهم ترشقك من كل مكان وتظل تتبعك حتى تختفى . . ؟؟ .

-لا شىء . .

- أما أنا فسوف أقتلع أى عين تفعل ذلك . .

فغمغمت بدون وعى:

- الوحش . .

وعندما سمع المعلم منها هذه الكلمة انفجر ضاحكًا ضحكًا مكتومًا، ثم جذبها من يدها إلى طريق جانبى مظلم، وهى تتبعه دون أن تبدى شيئًا من الاعتراض، وطلقات الرصاص فى حفل الزفاف ما زالت تزغرد فى الآفاق وتختلط بصيحات الأطفال، وغناء النسوة . .



[٥]

تلفتت منال حولها -وهى فى بيت حامد المليجى- وشملت المكان بنظراتها الفضولية، حجرة الاستقبال جميلة، فاخرة الأثاث، حتى التماثيل الخزفية موجودة بها، وصورة ضخمة للمعلم حامد وهو يمسك بعصاه المعوجة معلقة على الحائط، وعلى رف خشبى مذياع كبير الحجم، ومطربة معروفة تترنم بأغنية «من بعيد يا حبيبى. .»، ودخلت امرأة ريفية تتعثر فى حيائها وخجلها. . وتلف شالها الأسمر الحريرى فوق رأسها وحول عنقها والنصف الأسفل من وجهها، وتمتمت فى ارتباك: «زارنا النبى يا ست الحكيمة. . نورك ملأ البيت. .»، واختطفت يد منال لتقبلها تاركة منال فى حيرة من أمرها وقهقه المعلم حامد بينما قالت منال:

- مَنْ هذه؟؟

فردت المرأة:

- خادمتك أم العز.

وأتبعها حامد بقوله :

- زوجتى . . الأشغال الشاقة المؤبدة التى حكم بها أبى علىّ رحمه الله . . زواج بدل . .

وغرقت المرأة فى خجلها من جديد، ولم يبد عليها أنها تألمت أو تأثرت لكلمات زوجها وكأن هذا الكلام شىء مكرر معاد ألفته من زمن بعيد، أو لعلها تؤمن أن ضمن الحقوق الزوجية المقدسة أن يسخر منها زوجها ويسبها ويعرض بها دون أن تتمرد أو تثور . . ورفعت منال نظراتها إلى «أم العز» من جديد، كانت تميل إلى السمنة، آثار الحمل تبدو على بطنها، وعقد من الكارم الأصفر يزين صدرها، خلف شالها الشفاف، والقرط الذهبى الدائرى الكبير يتدلى من أذنيها، والكحل الأسود يطلى عينيها فى غير نظام أو أناقة، لكن عينيها كانتا كبيرتين فاتنتين كعينى البقر الوحشى، وعنقها ممتلئ بض . . ولفمها شفتان دسمتان ذواتا جاذبية خاصة كانت جميلة حقًا، وهتفت منال :

- زوجتك جميلة جدًا يا معلم . .

فرد المعلم وهو يشير بيديه فى حركات تمثيلية :

- ربما . . لكنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم . . مثل النعاج تمامًا .

وكم كانت دهشة منال حينما رأت أم العز تضحك، تضحك من أعماقها البيضاء، وتدير رأسها فى حياء، ويهتز جسدها المكتنز تحت تأثير ضحكاتها، وتقول:

- يطول عمرك يا سى حامد.

- ثور الله فى برسيمه.. يا أم العز.. تحركى يا امرأة.. أين الشربات..؟؟

- من عينى حالاً.

وخرجت أم العز وتركتهما، ولم تكن منال قد أفاقت من دهشتها تمامًا، كانت تفكر فى تلك الريفية الساذجة الجميلة، والتى لا تثور من جارح الكلام، أو تتألم لوقع سخريات زوجها. نعاج.. ثيران.. أشغال شاقة.. تلك هى التشبيهات التى يطلقها عليها زوجها، وهى تبش له، وتبتسم لسياطه القاسية، وكأنها تستمع لعبارات الغزل الرقيقة التى تبعث النشوة والسعادة بين جوانحها، وكانت منال تفكر أيضًا فى المعلم حامد الذى لا يتحدث عن زوجته إلا سبابًا ونهشًا وسخرية، وفى الوقت نفسه يتحدث إلى منال فى رقة.. وأدب، وتوسل فى بعض الأحيان.. وصحت منال من أحلامها على يد المعلم تقبض على معصمها ويجذبها إليه فى ابتسامة عذبة، ويقول:

- لابد أن أضع هذا السوار الذهبى بنفسى حول معصمك . .

وارتجفت منال حينما باغتتها المفاجأة، لكنها عادت إلى شيء من الهدوء حينما رأت أن الأمر لا يعدو أن يكون سوارًا يوضع فى يدها، ومع ذلك سحبت يدها منه، وهى تقول :

- ما هذا يا معلم . . ؟ .

فضحك فى ثقة واعتداد وهو يقول :

- هدية . . مجرد هدية متواضعة .

- لكن ما مناسبتها؟؟

- لا أدرى بالضبط . . لكن ألا تعتقدين أن الهدية قد تكون بداية لعهد جديد من الألفة والصداقة؟؟ أنت ضيفة على قريتنا، والهدية وسيلة من وسائل التعارف . . أليس كذلك؟؟

واستعادت «منال» ما قاله لها الطبيب بالأمس القريب عن المعلم حامد، وطريقته فى الحياة، وشرائه للذمم، وكيف أن هداياه عبارة عن رشوة مقنعة . . ومن يقبلها لابد أن يقوم بخدمته ويسهل له أموره، ومن لا يقبلها يعرض نفسه للخطر والفضائح، واجتاحت منال موجة طارئة من الحماسة، وقالت :

- لا أقبل . .

فلم يزايله هدوؤه المعتـاد، بل بقى السـوار فى يده، وقـال منبسطًا :

- ولِمَ؟؟

- صداقتنا ليست فى حاجة إلى توطيد . . إنها وثيقة . . ثم أن أم العز أولى بهذا السوار منى .

فضحك المعلم ضحكات عالية، وقال :

- أم العـز تحـتـاج إلى خلخـال نحاسى وزن ثقـيل . . هذه الأشياء الرقيقة ليست لها . .

وصـمت المعلم فترة، ونظراته القوية المخيفة مسـددة إلى منال، وقال :

- قولى كلامًا غير هذا . .

- لا يصح أن أقوله . .

لا تحرجنى . .

لقد جئت لأكشف على زوجك الحامل .

- سوف تفعلين .

- وثانيًا أنا لا أقبل الرشوة . . ولو قطعت رقبتى . .

واهتز المعلـم فى نشـوة لشـجـاعـتهـا الطارئة، إن المعلم أمـره عجيب، إنه يستمتع بعض الأحـيان بتحدى الغير له . . إن ذلك

مصدر لذة فائقة، لا تعادلها أنفاس الحشيش التى تبعث الخدر والنشوة الزائفة فى كيانه، وتمنى فى هذه اللحظات أن ينقض عليها، ويطويها بين ذراعيه القويتين، ويعتصرها عصراً، لكن ليس الآن.. إن شيئًا ما لم يزل يفصل بينها وبينه، ولو كانت مثل أم العز لكنس بها الأرض.. ثم احتضنها وقبلها.. هكذا.. كلاهما أنثى.. لكن منال أنثى من نوع آخر..

- أتقولين رشوة؟؟

هذا تفسير سيئ للهدية.. ربما أغتفره لإنسان جاهل خبيث الطوية، لكن من الآنسة منال.. فهو مؤلم.. مؤلم حقًا.. وهذا يجعلنى أفكر فى الانتقام فوراً..

وأدارت منال رأسها سرعة، وقد ارتسم الخوف فى عينيها:

- تنتقم؟؟

- أجل.. وهذا هو انتقامى..

وأمسك بمعصمها من جديد وقد شحب وجهها وارتجفت كل عضلة فى جسدها، وفكرت فى أن تصرخ وتستنجد، لكن الصرخة ماتت بين شفتيها حينما رأت المعلم يبتسم، ويضع السوار فى هدوء وثبات، وهو يقول:

- إن انتقامى هو أن أرغمك على قبول الهدية.. النبى قبل الهدية.

ودخلت أم العز تحمل أقداح الشربات الأحمر، وكان خجلها قد زايلها بعض الشيء، وقالت وهى تضع الأقداح أمام منال:

- لقد شرفت بيتنا.

وعندما حاولت منال أن تسألها عن الحمل وأعراضه، والمتاعب التى تتعرض لها، قطع المعلم حامد الحديث صاحكًا، وقال:

- دعى هذا الآن.. لا تقلقى عليها.. النساء هنا يلدن، ثم يقمن بعملهن كالمعتاد.. يذهبن إلى الحقول، ويقمن بخدمة أزواجهن، وينظفن البيت.. وأم العز بالذات تضع مولودها بسرعة.

هذه الجاموسة لا تعرف المرض..

وتدخلت أم العز قائلة:

- ربنا يبارك فيك يا سى حامد..

•••

كان الوقت متأخرًا عندما عادت منال إلى المستشفى، وقصدت من فورها عنبر المرضى، بعضهم لم يزل متيقظًا يتأوه من شدة الألم، والبعض الآخر يطالب بما قرر له عقاقير، وقلة

منهم ناموا، وغطيطهم ينبعث كنغم نشاز، والممرضة الأخرى قد أسندت جبهتها فوق كرسى آخر، وراحت فى سبات عميق، ومن آن لآخر ترفع منال يدها وتحملق فى السوار الذهبى الذى تنعكس عليه الأضواء الباهتة فتصدر عنه إشعاعات صفراء. . وصورة المعلم حامد «الوحش» الناعم الملمس الذى يخفى مخالبه وأنيابه وراء مظهره الضاحك دائمًا. . وصورة أم العز الجميلة، البضة السمينة، التى لا يبدو عليها أنها تعرف الحزن أو التمرد. . الصورتان تلحان عليها وترفضان أن تغادرا مخيلتها، ولم يطرأ على ذهنها لأول مرة صورة أمها وإخواتها فى القاهرة. . لقد استطاع مرور الزمن، وما مر بها من أحداث وأجواء جديدة أن ينسياها بعض الشىء ذكريات القاهرة والأهل والأقارب وليالى القصر العينى، طرائف الحب هناك وعبث الشاب الذى يقف على عتبة المستقبل وفيه كثير من الثقة وكثير من القلق أيضًا. .

وسمعت منال ضجيجًا يقترب. .

ومع الضجيج والصيحات المختلطة كانت تنبعث صرخات النسوة.

وفى لحظات كانت قد هبطت السلم. . وفى رحبة المستشفى جاء الطبيب والتقى بها وهو يغالب النوم ويمسح عن أجفانه ما علق بها من أحلام لم تكتمل. .

- ما هذا يا منال؟؟

- لابد وأنها حادثة . .

- فى هذا الوقت المتأخر؟؟

- الكوارث لا وقت لها . . إنها كالقضاء والقدر . .

وامتلأت رحبة المستشفى بالنساء والرجال والأطفال، لم يستطع الطبيب أن يعى ما يقال، بالرغم من أن النوم قد طار تمامًا عن عينيه، وفى حجرة العمليات رقد أربعة رجال جرحى . . أحدهم فى حالة خطرة . . «يجب أن ينقل إلى المستشفى المركزى فورًا، يحتاج لعملية استكشاف . . والثلاثة أمرهم بسيط، وغرز قليلة بالسلك . . ثم غسل الجروح بمادة مطهرة وإعطاء بعض الحقن . . »، هذا ما قاله الطبيب لمنال التى تقف إلى جواره، والضجيج لم يزل ينبعث خارج الحجرة، ورجال يتوعدون، ونساء يشهقن بالبكاء . . ويبدا أن القرية كلها قد هبت من نومها مذعورة . . وأجريت الإسعافات اللازمة للثلاثة، أما الرجل الآخر فقد كان فى حالة سيئة جدًا رأسه ينزف دمًا غزيرًا . . لا يتكلم ألبتة . . إنه فى غيبوبة مستمرة هذا ينذر بالخطر . . وقلوب تخفق بالخوف والغضب والوعيد تقف بباب حجرة العمليات، وصوت جهير يرن فى أذن الطبيب بعد أن فتح باب حجرة العمليات عنوة: « . . من جنيه لألف يا

دكتور . . أنقذ حياته وخذ ما تشاء . . مستعد أبيع عمرى، وينجو ابنى . . إنه ولدى الوحيد فى عرضك يا دكتور . . ».

لكن الرجل مات . . مات قبل أن ينقل إلى المستشفى المركزى . . ولم تجد الإسعافات الأولية فى إنقاذ حياته، وأبوه أخذ يعول كالنساء فى الخارج . . ومن خلال الدموع والصرخات وعويل النساء، التقطت أذن الطبيب عبارات فهم منها شيئًا . . «لعنة الله على النساء . . ليس وراءهن غير خراب البيوت . . ».

وجاء المعلم حامد، لم تستطع الكارثة التى أذهلت جميع أهالى شرشابة أن تطفئ الابتسامة التى تبدو وكأنها خلقت معه . . وكأنها جزء من ملامحه وتقاطيع وجهه، وكشف الستار عن الحادثة حيث قال:

- فتاة صغيرة ذات مال . . تقدم لها اثنان . . نجح واحد، وأوصد الباب فى وجه الآخر . . وأحنقت الهزيمة الفتى المطرود . . ومن هنا جاءت الكارثة، وسالت الدماء، الناس هنا يحبون قصص «أبو زيد الهلالى» و «الزير سالم» و«ناعسة» . .

وقالت منال:

- لكن من الذى مات؟

- الذى انتصر فى معركة الزواج . .

- مسكين . . ليته لم ينتصر . .

وتمتم المعلم :

- كل شىء مكتوب . .

- لن يتزوجها القاتل ولا القتيل . .

- أجل . . إنها لإنسان آخر غيرهما . . والذى حدث بداية لزواج لم يخطر على بالهما .

ولم تنم القرية . . وجلجل صوت المؤذن لصلاة الفجر كالعادة . .

وأشباح تدق الأرض بأقدامها الحافية المتشققة ، وتنطلق صوب المسجد ، وشيوخ يسعون ، ويستندون على عصيهم العتيقة ، ورجل يمر بالشوارع يوقظ الناس للصلاة «يا عباد الله . . قوموا اذكروا الله . . الصلاة . . الصلاة . . يا مؤمنين الصلاة . . .

يا نائمًا كيف المنام يطيب

الموت حق والفراق صعيبُ

ولصوت المترنم نغمة أخّاذة تهز القلوب ، وتطلق الدموع ، ويمتلئ أفق الصباح الوليد بزفرات الشوق والحنين ، وبضجيج

الدعـوات الحارة التى تنبعث من الأعـمـاق «يا رزاق ارزقنا . . اللهم اكفنا شر المصائب يا رب . . يارب . . » .

والطبيب قد ألقى برأسه فوق مكتبه ونام . .

ومنال تسللت إلى حجـرتها ، واستلقت فوق سـريرها . . وارتمت إلى جوارها يدها . . وفى المعصم سوار . . سوار ذهبى لا ينطفىء بريقه . .



[٦]

لم تمر زيارة «منال» للمعلم فى بيته مرورًا عابرًا، بل تناقلها أهل القرية بالشك والريبة، قال قائل: إنها زيارة بريئة لا أكثر، وأين المعلم فى دنياه الصاخبة بالحشيش والأفيون والتجارات من دنيا منال الفتاة المتعلمة، القوية الشخصية التى لا تستطيع يد أن تمتد إليها بسوء، أو يعاملها أحد بخبث؟ وقال آخرون: إن المعلم حامد داهية لا يشق له غبار، وليست هذه أول مرة يتعامل فيها مع نساء قادمات من المدينة، فقد أشاعوا من سنوات أنه كان على وشك الزواج من امرأة فى طنطا ويومها بكت أم العز بكاء مرًا، وشىء آخر مهم جدًا هو أن المعلم يملك المال الوفير اللازم لشراء الذمم والضمائر والقلوب أيضًا . .

وبلغت مسامع عبد المعطى تلك الهمسات الآثمة . . كان عبد المعطى قد عاد إلى بيته- بعد أن أسف لتصرف منال معه- وفى قلبه الكثير من الآلام والأحزان، وقصد من فوره إلى حجرته الخافتة الضوء، وعندما أغلق بابها خلفه، ترك العنان لدموعه، كان يشهق شهقات مكتومة يرتجف لها كيانه كله، وسرعان ما

زايله انفعاله وأخذ يعود إلى هدوئه رويدًا رويدًا، لكن فى قلبه جرحًا حديثًا ليس من المعقول أن يندمل سريعًا، وخلع جلبابه الصوفى وباقى الطاقم الذى خصصه للمناسبات، وأبقى فوق جسده قميصًا أبيض، وارتمى فى ركن الحجرة عارى الرأس. . ولم يستطع الضوء الخافت أن يخفى الشحوب البادى على وجهه، ثم غمغم فى أسى: «أهكذا تفعلينها يا منال؟؟ سامحك الله. . أنت التى أعادت إلىّ الأمل فى الحب، وغسلت أدران قلبى، ووارت أحزانه. . فأصبح أبيض نظيفًا كاللبن الحليب. . أنت التى فعلت ذلك، ثم تأتين وتعطيننى بقشيشًا. . حتى لكأنى خفير. . لكأنى رجل غريب تمام الغربة عنك، ليس بينى وبينك من صلة سوى صلة العمل؟ ألا تعلمين أن هذا يقتلنى يا منال. . لأنك أقرب إلى نفسى من أى إنسان آخر. . من أهلى. . وأصدقائى وحياتى. . بل أنت الأمل الكبير الذى أعيش فيه، وأحلم به؟ كانت بسمة واحدة كفيلة بأن تسعدنى وتفرح قلبى وليت تلك القطعة الفضية اللعينة بقادرة على أن تفعل شيئًا سوى أن تثير عجزى، وتجعلنى أحس أنك لم تزالى بعيدة عنى أميالاً وأميالاً، وإن كنت تعيشين فى حنايا قلبى. . فى روحى. . ».

وحاول عبد المعطى أن يقوم لكنه لم يستطع فقد دهمته آلام مبرحة فى أعلى بطنه ناحية اليمين، فوضع يده فوق الألم،

وأخذ يتأوه فى خفوت، ثم تمدد على حصيره الجافية، وأنفاسه تتلاحق، وقطرات من العرق البارد تقع فوق جبينه الشاحب، وتمتم فى صوت واهن ضعيف: «أمى.. أمى..»، ولكن لم يسمعه أحد، فثارت عواطفه من جديد، وبدا أكثر حساسية من ذى قبل.. أصبح طفلاً سريع الضحك.. سريع البكاء، من الميسور أن يتألم لأوهى سبب، ثم تستطيع أن تجعله يملأ المكان ضحكًا ومرحًا لأوهى سبب أيضًا.. وبقى عبد المعطى وحيدًا فى حجرته يلوك أساه، ويجتر أحزانه، ويجفف دموعه التى تنسكب من آن لآخر فى صمت حزين.. ومر يومان أو ثلاثة.. وعبد المعطى باق فى مكانه وحيدًا، يحس أن قواه تخور يومًا عن يوم، وأن المرض يتفاقم وتزداد مضاعفاته، حتى أصبحت وجنتاه أكثر بروزًا، وكذلك وشت عيناه الغائرتان بالكثير مما يقاسيه، وأزعجت أمه ملازمته للفراش، فأقبلت نحوه مهرولة، والطعام على يدها كالمعتاد:

- لن أقرب طعامًا يا أمى..

- ماذا أصابك يا ولدى!.

- يخيل لى أن مرارتى سوف تنفجر..

فضربت بكفيها فى دهشة واستغراب، وقالت:

- باب النجار مكسور.. أليس كذلك؟؟ إنك صديق حميم للطبيب والحكيمة، وتأخذ إليهما المرضى، وتتوسط

لهم، وأنت الجديد بكل رعاية، وتستحق العلاج الناجز السريع، وتنسى نفسك وتتجاهل آلامك وصحتك المتدهورة.

وبلغ عبد المعطى أن الدكتور رمزى علم بمرضه وسأل عنه كثيراً، وحاول أن يستدعيه لكنه توقع أنه لا شك سوف يحضر إلى المستشفى للعلاج، وطال انتظار الطبيب دون جدوى، وفى هذه الأثناء كان هناك من يحل محل عبد المعطى لدى الطبيب، فاستطاع أن يشغل مكانه، ويقوم بما عليه من واجبات، ويكون هو الصلة بين المرضى والطبيب، وسمع عبد المعطى بذلك، وكان هذا كفيلاً بأن يثير حفيظته، ويوقظ ما فى قلبه من حقد قديم، ونزعة أصيلة للانتقام وسحق عدوه، لكن طباع عبد المعطى كانت مختلفة تمام الاختلاف هذه المرة، كان زاهداً فى المال الذى يعطيه له الطبيب، ولم يشعر بحقد بالغ تجاه الرجل الذى شغل مكانه، كل ذلك كان بمثابة تفاهات صغيرة لا يصح أن تشغل ذهنه، وتجرح كبرياءه.. إن الذى جرح كبرياءه فعلاً هو ما سمعه عن منال.. وعن المعلم حامد المليجى.. هذا الشيء أحنقه تماماً، كان كالمسكن الوقتى لآلامه، إذ سرعان ما نسى مرضه واتقدت حمى الغضب فى قلبه وجسده وروحه، وشعر بالغيرة اللافحة، وتمتم فى غيظ «هذا الثعبان ذو دهاء.. يستطيع أن يتخمها بالهدايا والأكاذيب والمال، ويغريها بمظهره الذى يبدو كصفحة الماء الصافية وهو

فى داخل نفسه بؤرة عفنة . . إن منال المسكينة تخطو إلى جحيمه ومكائده خطوات لا حذر فيها ولا احتراس . . الويل له إن كان يحبها كما يزعمون . . الويل لكل من تحدثه نفسه بأن ينال من طهارتها وعفتها . . إنذار أبعثه من فوق فراش المرض وأنا واثق تمام الثقة من تنفيذ ما أهدد به . . » .

●●●

وكم كانت دهشة عبد المعطى حينما جاءت أمه ذات ليلة مهرولة وهى تقول فى ارتباك ظاهر :

– عبد المعطى . . عبد المعطى . . الدكتور وصل . .

وتحامل عبد المعطى على نفسه ، وقد لامس نفسه بعض الانتعاش النفسى . . إن الطبيب بنفسه قد حضر لزيارته ، وعبد المعطى فى ذلك الوقت طفل فى عواطفه وانفعالاته ، لحساسيته المفرطة فى تلك الأيام ، ولم يستطع أن يصدق عينيه حتى رأى الطبيب يدخل وإلى جواره . . منال . . منال بلحمها ودمها ، وذهل لبضع لحظات ، ثم قفز من فراشه كشاب فى العشرين من عمره ، واختطف يدها ليصافحها فى حرارة وكاد ينسى الطبيب الواقف إلى جواره «عندما ينهمر المطر على أرض مجدبة عطشى طال جفافها ، تبتسم الدنيا وتشرق الحياة ، ويكون للهواء والوجود مذاق جديد ، وهكذا

تكفر الطبيعة عن خطاياها» ، ذلك كان إحساس عبد المعطى وهو يستقبل المرأة التى عبدها قلبه . . ووضعت أمه ثلاثة مقاعد استعارتها من الجيران . . وجلست منال والطبيب وهو . . حاول عبد المعطى أن يتكلم . . لكن الكلمات لم تطاوعه ، حتى كلمات الترحيب التى اعتادها الناس تعثرت لدى شفتيه ، وأمه وحدها هى التى استطاعت أن تجاملها بطريقتها الفطرية البسيطة ، إن حدثًا كبيرًا قد وقع . . فزيارة الطبيب لبيت من البيوت فى القرية أمر يجب أن يتحدث به الناس كثيرًا . . ونسى عبد المعطى إساءة الزمان . . والقطعة الفضية . . ونسى ما زعموه بالنسبة للمعلم حامد المليجى . . «ليقولوا ما شاءوا . . الناس كاذبون . . يخلقون من الحبة قبة . . » ، وتمتم الطبيب :

- طالت غيبتك علينا . .

- وطال شوقى إليكم . .

- وأسفنا لمرضك يا عبد المعطى .

- فيك الخير يا بك . .

- كان المفروض أن تأتى للعلاج عندنا . . فيتم شفاؤك . . فالتفت عبد المعطى إلى «منال» ، وقال فى نبرات مرتعشة :

- الشافى هو الله . .

فقالت منال ضاحكة:

- والطبيب؟

- مجرد وسيلة.. إنه يد الله البيضاء..

- أورثك الاعتكاف والمرض إحساسًا صوفيًا عميقًا يا عبد المعطى..

- يا ست منال.. كان شيخى يقول لى دائمًا: لا تنسوا الله فيكلكم إلى أنفسكم..

وقالت منال وقد ارتسم على وجهها ظل ألم دفين..

- وماذا يقول شيخك في أولئك الناس الذين تقولوا علينا بالباطل، وأثاروا الشبهات حول الزيارات البريئة، وقدحوا فى أعراض الناس وسلوكهم رجمًا بالغيب؟

- شيخى يقول: إن بعض الظن إثم.. لكنه قال أيضًا: من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.. يعنى.. لا تضعوا أنفسكم فى مواضع الشبهات.. الناس فى قريتنا ينتقلون إلى عصر جديد.. وما يرونه غريب جدًا عليهم.. لم يعتادوه من قبل، وأفكارهم الساذجة تصدر عليه أحكامًا.. قاصرة.. مجرد سوء فهم.. الخروج على ما ألفوه يزعجهم.. هذا كل ما فى الأمر..

كانت كلمات عبد المعطى ذات دلالة عميقة، صادقة تمام الصدق، وأخذ يتحدث من خلال الأحداث الكثيرة التى تعرض لها فى ماضيه وينظر إلى مفاهيم قريته، وتقاليدها العريقة، الجمال فى نظرهم محفوف بالخطر، والحب إثم كبير، والمرأة التى لا راعى لها أو زوج إذا تحدثت فهى فاجرة، وإذا مشت فى الطريق وحدها فهى ضعيفة، وإذا كان معها أحد فهى عاهرة، وتحتقر الناس والعقول وتدوس على الشرف والتقاليد.. فيها أقوام لا يعرفون غير الله.. والمسجد.. والحقل.. وذويهم.. ينامون الليل كله، ويكدحون طول اليوم، وفيها ناس مغرورون يدعون كل شىء، ويشمخون بأنوفهم فى تعال أجوف.. بالاختصار فيها ثعابين.. وشياطين وملائكة.. هؤلاء الذين يقفون بين يدى الله متصاغرين ضارعين قد ينقلون فى غمضة عين إلى عمالقة.. مردة يتصارعون، ويريقون الدم من أجل ماء الترعة.. أو قيراط برسيم.. أو امرأة ذات مال تسابقون من أجل الزواج بها كما رأيتم.. واستطرد عبد المعطى:

- والمعلم حامد المليجى.. وغد كبير.. كالذئب الذى يخطف دجاج القرية تحت جنح الظلام..

فقالت منال فى قلق:

- ولماذا حامد المليجى بالذات؟

- رجل يخافه الناس ويكرهونه . . ومن داره انطلقت الشائعات . . زعموا أنه قد يتزوجك يا ست منال . .

فضحكت منال ضحكة عالية لم تستطع أن تمحو الارتباك الذى ساد وجهها وحركاتها، وقالت:

- إنهم أغبياء . . وأنا لا أخاف هذا الرجل . . وآنف أن يمسح حذائى . .

وكان لهذه العبارة صدى متناقض فى نفس عبد المعطى، فقد اجتاحته نشوة عارمة حينما سمعها تسخر من المعلم، وتمرغ كبرياءه فى الطين، لكن ما معنى ذلك؟؟ هل منال تنظر إلى القرية ورجالها وعواطفهم هذه النظرة المتعالية الساخرة؟؟ فماذا تكون نظرتها إلى عبد المعطى العليل الفقير إذن؟؟ وأزعجه هذا الخاطر أيما إزعاج، لكنه عاد فابتسم لكلماتها الجارحة التى صفعت بها رجولة المعلم وكبرياءه، وقال ونشوة النصر تنبض فى حديثه:

- - المعلم سوف يبنى فى شرشابة «فيلا» أنيقة . .

فقالت منال ساخرة:

- فيلا فى شرشابة؟ إنه أمر شاذ.

فتدخل الطبيب ضاحكًا:

- قد يكون الشذوذ عبقرية . .

فقالت منال :

- فيلا فى شرشابة . . كوردة فى بركة . . أليس كذلك . . ؟

وكان تعليق عبد المعطى :

- ربما . . لكنه يريد أن يبنى لحبيبته قصرًا يليق بها . . أعنى أنه يقول لمن حوله ويؤكد لهم . . أنك ستكونين زوجة المستقبل . .

فرمت منال برأسها الجميل إلى الخلف ، وقالت وهى تهتز من الضحك :

- وأم العز؟؟

- ليست أمرًا ذا بال . .

- وأولادها؟؟

- المعلم لا يفكر إلا فى نفسه . .

وهز الطبيب رأسه فى أسى ، وهو يقول :

- الجو ينذر بالعواصف . .

فقالت :

- وما السبب؟؟ .

- لست أنا . . ولا أنت . . وإنما ألمح هناك شيئًا خفيًا يدور

فى النفوس . . معركة عنيفة من التمرد والصراع ، القرية تستيقظ . . وبين اليقظة التامة والنوم العميق فترة خطرة لا هى بالنوم ولا هى بالصحوة وإنما هى شيء يشبه النشوة . . فيكثر عدد السكارى الذين يتصرفون بغريزة الحيوان . . لا أقصد بالضبط الحيوان . . وإنما هى شخصية ممزقة جعلت من أرضها مجالاً لاصطراع نفسى هائل . . الازدواج يسبب الارتباك والانفصام أليس كذلك؟

ولم يعِ عبد المعطى ما يقوله الطبيب تمامًا ، خاطر أنانى كان يراود مخيلته ، لقد تأكد الآن من أن منال تسخر من خزعبلات المعلم وادعاءاته ، وتنظر إليه على أنه مجرد فلاح جلف ، يغريه بريق جمالها وتسلب لبه فتنتها الصارخة . . إنه لا يعرف الحب ، ولا يفكر التفكير المتزن السليم الذى يليق به كفلاح . . كتاجر مخدرات . . كمواطن من أبناء شرشابة . . القرية المتواضعة . . وبدت له منال كأنها فى سماء عالية لا يستطيع المعلم ولا من هو أقوى منه أن يرقى إليها . . علىّ وعلى أعدائى يارب . . المهم ألا يصل المعلم أو غيره . . وتبقى هى أملاً بعيدًا . . بذلك أستطيع أن أحبها كاملة . . حبًا صوفيًا صرفًا . . لكن واكرباه إذا امتدت إليها يد ، أو اختطفها عاشق ، وأصبحت له . . هنا أكون قد ودعت الحياة . . يجب ألا ينالها أحد ، حتى ولا «أنا» . .

وتمتم عبد المعطى فى شىء من الرضى والثقة :

- ألا تفحصنى يا دكتور؟؟

وتدخلت منال قائلة :

- يخيل إلىّ أنك متعب لدرجة تحتم انتقالك للمستشفى . . يجب أن تأتى غدًا وتقضى أسبوعين عندنا . .

ودخلت أم عبد المعطى تحمل زجاجات القازوزة، وتناول الطبيب زجاجته، ثم شربها فى شىء من السرعة، وتجشأ، ولمعت قطرات العرق جبينه الأبيض المشرب بالحمرة، بينما شردت منال، وأصبح جليًا أنها تفكر فى أشياء كثيرة، ومن آن لآخر تأخذ من الزجاجة جرعة صغيرة، وتحاول من آن لآخر أن تلقى تعليقًا مقتضبًا، وعبد المعطى يتحدث مع الطبيب عن العيادة الخارجية، وعدد الزبائن، وهل هو مستريح أم لا؟؟ وبينما هما منهمكان فى حديثهما الذى يتعلق بالعمل والمرضى ورأى الناس فى الطبيب، اندفعت منال تقول دون مقدمات :

- هذا الرجل الذى تطلقون عليه قاموسًا من الصفات . . الوحش . . الذئب . . الثعبان . . أنا لا أخافه . . وعندما يفكر أن ينظر إلىّ نظرة غير مهذبة فسوف أقتلع عينه . . هل فهمتم؟؟ يجب أن تبلغه ذلك يا عبد المعطى، ويجب أن يعلم أهل شرشابة ما أقول . . أنا لست هينة سهلة المنال، ولكنى فتاة

مـثـقـفـة . . ذات كـبـرياء . . لن أطأطئ رأسى لأحـد . . هل فهمتم؟

ويدا عليـها انفعـال ثائر ، حـتى خيِّل لهـمـا أنهـا على وشك البكاء ، وتمتم الطبيب :

- إنك أنثى على أية حال . . أنثى ضعيفة حتى فى ثورتك وتهديدك وكبريائك . .

فقالت وهى تقف والغضب والدموع يمتزجان فى عينيها :

- سترى . . هيا . . آن أن نرحل . .

وحاولت أن تنظر إلى الساعة التى فى معصمها ، لكنها بحركة لا إرادية رمقت السوار الذهبى المتألق الذى أهداه لها المعلم من قبل ، فهبطت بيدها فى عنف وحُنق وكأن السوار قد زاد من ثورتها وحدتها ، وقبل أن تخرج من الحجرة ، اقترب منها الباشكاتب عبد المعطى ، وقال فى ثقة :

- اطمئنى . . عندما تفكر يد أن تلمسك فلسوف أقطعها . . واللسان الذى يتقول عليك سوف أرميه للكلاب . .

- وأنا كفيلة بأن أفعل ذلك . .

وخرجت ومن ورائها الطبيب وعبد المعطى يتحامل على نفسه ، ويجرى خلفهما لاهثًا والعبارات تتناثر من فوق شفتيه :

- شرفتم . . حصلت لنا البركة . . شرفت دارنا يا ست منال . . كلنا خدام لحضرتك . .

لكن منال لم تكن تسمع سوى الكلمات الوقحة التى أشاعوها عنها، ولم يكن فى خيالها ذلك الرجل الناعم الملمس، والذى يطوى بين أضالعه قلب ذئب مفترس، وينطلق من عينيه بريق فيه ثورة . . وخوف . . وجوع . . وإغراء . . .



[٧]

لم يكد يشرق الصباح فى اليوم التالى حتى غذّ عبد المعطى السير ناحية المستشفى، وبدا مشرقًا مستبشرًا برغم الداء الذى يسكن كبده وبرغم الضعف والوهن اللذين جعلاه يتطوح فى مسيره، وينقل خطواته اللهفى فى حذر، صورتها فى رأسها . . منال بتقاطيعها الحلوة المثيرة، وغضبها بالأمس وهى تثور وتسخط على المعلم بعد أن اتهمتها الشائعات، وأناملها الدقيقة وهى تفرقعها فى عصبية، كانت رائعة جميلة فى غضبها وألمها، والناس يلتقون به فى الشارع وهو شبه حالم، وكلمات كثيرة تتساقط دبر أذنيه لا يكاد يسمع منها شيئًا «حمدًا لله على سلامتك يا سى عبد المعطى . . ربنا يتم شفاءك يا حضرة الباشكاتب» . . وعبد المعطى يشير بيده محييًا أو يلوح بها شاكرًا، وأصدقاؤه يلتقون به فى الطريق العام، ويصطدمون لأول وهلة بصحته المتدهورة، لكن وجلهم يتناقص وهم يرون روحه المعنوية فى القمة، فرغم شحوب

وجهه الزائد، إلا أن ابتسامة نابعة من أعماقه تغنى فوق شفتيه، وصورتها من جديد تملأ قلبه وعقله وكيانه كله، الناس يحدثونه عن القتيل الذى راح فى الظلام، وعن الجرحى الثلاثة، والثأر الذى يهدد مستقبل أسرتين كبيرتين، وحرائق الانتقام التى شبت فى المزارع والسواقى، والزروع التى أتلفَت عقب الكارثة، وهو بين هذه الأخبار المثيرة لا ينفعل أو يتَحيز لطائفة من الطائفتين مخالفًا بذلك طبيعته، كلا الطرفين الجانى والمجنى عليه فى نظره أبرياء. . ضحايا لحظة من لحظات الضعف الإنسانى والطمع. . اللهم أخزك يا شيطان. .

وبعد ساعة كان عبد المعطى يرقد على سرير نظيف فى قسم الأمراض الباطنية، والطبيب يعامله برفق، ويعده بالشفاء العاجل، ويناقش معه أهم أحداث القرية، ومنال. . منال هى الأخرى تتحرك بين الأسرة فى خفة العصفور الرشيق، وتميل عليه كالوردة اليانعة، وتضع أقراص الدواء فى فمه، ثم تغرز إبرة المحقن فى ذراعيه وهو يتمنع ويتوسل إليها أن ترفق به، وبين الابتسامات الفاتنة والضحكات البريئة الممتعة تناسى أمراضه وآلامه وأوراقه، واغتفر إساءات الماضى، وظل راقدًا على فراشه يحلم بالحب، ويجتر ذكرياته القريبة، وظلال السعادة تتراقص فوق وجهه الشاحب، وتخرج منالِ من العنبر لتعود، وعبد المعطى يجلس فى فراشه، وعيناه مركزتان على

الباب ينتظر أوبتها كمراهق صغير لا ينام الليل، ومشاعر مفعمة باللوعة والشوق تخالج فؤاده.. ليس له عهد بها من قبل وأصبح لحياته- رغم المرض- مذاق شهى، أصبح لها معنى ولم تعد تلح عليه أحقاده الصغيرة على أناس يكرههم أو يناصبهم العداء، ونسى أوراقه وأقلامه والتفكير فى الشكاوى القاسية التى كانت تهز القرية هزًا عنيفًا، وتسوق رجالها- ذوى الرأى- إلى حيث يدور التحقيق وتحدد المسئوليات ويؤخذ بالعقاب كل مقصر..

وفى ساحة المستشفى جلست «منال» تنتظر المعلم، لتتسلم منه التغذية، كانت ملامحها حادة جامدة، وعيناها مصوبتين إلى شىء، كانت تفكر فى السياسة الجديدة التى يجب أن تنتهجها حتى تعيد لنفسها كبرياءها، وتصفع تلك الشائعات الخبيثة صفعة قوية.. ترى لماذا ذهبت إليه فى بيته، وتركت نفسها تستسلم لأوامره وإصراره؟؟ هذا الفلاح المتعجرف يتسبب لها فى كل هذا، ويفرض اسمه عليها، ويملأ الجو شائعات مغرضة بتصرفه الخبيث.. ثم ترفع منال يدها، فتصطدم نظراتها بالسور الذهبى الثمين، وتحملق فيه بضع لحظات.. ثم تدع يدها تسترخى فى إعياء.. لا بأس.. لقد صحت من سذاجتها ونعاسها، وواجهت الموقف بقوة وشراسة.. لقد رفضت طعام الإفطار الذى أرسله فى

الصباح، وعندما ألحَّ عليها وتركه إلى جوارها لم تعره أدنى التفات، وانفلتت من الحجرة خارجة، وأرغمته على العودة به من حيث أتى. . والآن سوف يعود إليها كالكلب. . لن يستطيع أن يرفع نظراته إليها، وإذا فعل ذلك سوف تقابل وقاحته بالمثل، وتعامله المعاملة اللائقة بمثله، هذا الذئب سوف تعرف كيف تقلم أظافره. .

وحينما جاء المعلم ومعه بعض الرجال يحملون المواد الغذائية وغيرها، نظرت منال إليه دون اكتراث، وقامت لتفحص كل شيء، ووقف المعلم يرقب ما تفعل وفوق شفتيه ابتسامة هادئة قد تبدو ساخرة وقد تبدو غير ذلك، والتفتت إليه فجأة، وقالت:

- أين الأرز. . !

- أحضرنا مكرونة بدلاً منه. . لا يوجد فى السوق أرز. .

فعادت إلى أوراقها وكتبت وهى تقرأ ما تكتب بصوت مرتفع:

- تعاد المكرونة إلى المتعهد، ويشترى الأرز على حسابه حسب الاتفاق المبرم. .

فقال دون أن تزايله ابتسامته:

- كلام الملوك لا يرد. . والتفت إلى أحد أتباعه قائلاً:

- خذ المكرونة وضعها فى مخزن المقهى . .

ثم أخذت منال تفرز أرغفة الخبز ، وجعلتها قسمين ، وأشارت إلى أحدهما قائلة :

- هذه الكمية غير طازجة . . يجب أن تستبدل فوراً . .

- على عينى . . ارفعها يا ولد . . وأحضر بدلاً منها فى ربع ساعة . .

وعندما اقتربت من قفص العنب ، سبقها المعلم إليه ، وقال :

- هذه القطوف ليست على ما يرام ، يجب أن تستبدل . .

فقالت منال فى حدة :

- ولِمَ لم تفعل ذلك من قبل؟؟ المسألة ليست فوضى . . إنك تقبِض ثمنها كاملاً وعليك أن توفى بالتزاماتك كاملة . . ثم لا تنسَ أنها حقوق مرضى . . مرضى من أهل بلدك ، وهم مساكين فى حاجة إلى الرعاية . .

- معذرة يا ست الحكيمة فأنا لا أراها عند الشراء . . وأنا معك فى كل ما تقولين . .

وعجبت منال من أعصابه الحديدية ، بل إنها شعرت بغير قليل من الخجل ، إنها تتحداه وهو يقابل تحديها وعنفها

بابتسامته التى لا تغرب عن شفتيه ويسلم لها بكل شىء، لا يحاول أن يسترضيها أو يتوسل إليها، انتظرت منه كلمة رجاء فلم ينطق فى ثقة واعتداد.. ولما رفعت عينيها إليه، تلاقت نظراتها مع نظراته التى ينطلق منها بريق مثير مخيف.. وسرعان ما أجلفت، وهمست:

- انتهى.. كل مرة وأنت طيب..

وغمغم فى هدوء:

- متشكر..

وحينما أدار ظهره مزمعًا الرحيل، صرخت قائلة:

- يا معلم..

- خدامك..

- خذ..

ورأى المعلم الأسورة الذهبية ممدودة إليه، ووجه منال يسوده الشحوب، وشفتيها ترتجفان فى عصبية، فلم يتناولها منها بل قال:

- ليست لى..

- إنى أصر على ردها..

- ما السبب؟؟

- لأنه تصرف سافل من أساسه . .

- إنك غاضبة . .

فقالت في حدة وانفعال:

- «إنكم معشر الفلاحين مخادعون، يصفونكم بالبساطة والطهر والنقاء، وأنتم ذئاب تمتلئ قلوبكم الخبيثة . . كلكم مرضى بالبهارسيا . . وأيضًا بالخبث . . ».

وارتسم على وجهه ألم ظاهر، وقال وهو يغالب انفعاله:

- إنك تثيرين قضية، ليس من السهل الحكم فيها بهذه البساطة . . ومع ذلك . . الله يسامحك يا ست منال . .

وأد ار ظهره مرة أخرى، وهمّ بالرحيل، لكنها لحقته، وقذفت بالأسورة أمامه، وتمتمت حانقة:

- تستطيع أن تشترى بذهبك أمثال أم العز . . أما نحن فلا . .

فرفع الأسورة من فوق الأرض، ونفخ عنها التراب، ثم أخرج من جيبه منديلاً ولفها فيه في حرص، وأسكنها جيبه وهو يقول: «في الحفظ والصون . . ليس في قريتنا سوق للرقيق الأبيض مثل القاهرة . . ومن هنا لم تراودني فكرة الشراء بالذهب؛ لأنه شيء لم نألفه هنا في شرشابة . . ولو

سمعت مثل هذا الكلام من أم العز لمرغتها في التراب، وكنست بها الأرض.. لكن..

فقاطعته قائلة:

- احفظ أدبك وإلا..

- وإلا ناديت الخفير أو التومرجي وجعلته يقذف بي إلى الخارج.. أليس كذلك؟.. إن أحداً لا يستطيع أن يفعل ذلك.. فأنا أثقل من أن يحملني أحد عنوة.. والناس هنا لا يأخذون أوامر النساء مأخذ الجد.. فلم يبقَ سوى أن تحمليني بنفسك وتقذفي بي في الترعة المجاورة.. وستجدين من يصفق لك مسروراً..

وأتبع حديثه بضحكة ساخرة، وفي خطوات هادئة، خطا بعيداً عنها وفي قلبه مشاعر أبعد ما تكون عن تصوراتها، كان سعيداً منتشياً، وكلماتها الخانقة يتردد صداها في أذنيه، لم تزلزل من كبريائه، أو تحط من كرامته.. أو تبعث على الألم أو الغيظ- لقد انتصر.. استطاع أن يفرض نفسه على تفكيرها، إنها لم تثر في وجه أحد في شرشابة أو تناصبه العداء، لقد تميز عن الجميع باصطدامه معها، حتى تأزم الموقف بينهما، إنها نتيجة سريعة سارة لم يكن يحلم بها قط، وغمغم لنفسه: «هذه الدمية اللطيفة قد شغلت قلبي حقاً.. هذا

الصنف الثائر المتمرد من النساء حلو المذاق . . شىء لم أجربه . . إنها تنتفض بالحياة وتلفح كالنار، وتسكر كالحشيش . . كالخمر . . أما أم العز . . فهى زجاجة كوكا كولا مثلجة . . دخان بلا حشيش، لها أثر وقتى تافه . . عندما أستطيع أن أتشاجر مع منال كل يوم فسوف أغمض جفنى كل ليلة فى سعادة بالغة . . وأنام منتشيًا سعيدًا . . آه- سامحك الله يا أم العز يا جذع الجميز . .

وبقيت منال- بعد ما حدث - فريسة همٍّ لا يريم، لقد شعرت فى بداية الأمر براحة كبرى ونظرت إلى يدها بعد أن خلعت عنها الأسورة، وتنهدت فى ارتياح، لم يعد هناك ما ينغصها أو ينال من كبريائها وسمعتها وطهارتها، سوف تمضى فى شوارع القرية مرفوعة الرأس، تبتسم للجميع، وستؤكد للجميع أنها فوق الشبهات والصغائر، وأن منال - أميرتهم الفاتنة- سوف تبقى فى سمائها لا تمتد إليها يد بسوء، أو يغمزها لسان بكلمة نابية . . ولن تزور أحدًا دون الآخر، بل ستتردد على دور الفقراء والأغنياء، والمعارف وغير المعارف، وستعود كما كانت بادئ الأمر تلتقى بالأطفال الصغار فى الحوارى والأزقة، وتطبع على خدودهم المعفرة بالتراب قبلة الود والمحبة، وتربت على أكتافهم ورءوسهم فى حنان، وتعطيهم «الطوفى» والملاليم . . وبذلك لا يستطيع المعلم ولا

غـيره أن يتبـاهى بعـلاقـته مـعـهـا أو يزعم احتكار عواطفـهـا وتقـديرها . . فـهى للجـمـيع . . الأطفـال . . والرجـال . . النساء . . والصبايا . . الفقراء والأغنياء . .

لكن سـعادة منال لهـذه الخواطر كـانت طارئة ، سرعـان ما تبخرت ، تركت فى قلبهـا ألمًا عميقًا . . لقد كان فى تصرفهـا رعونة واستهتـار . . فيم أخذت الهدية ، وفيـم ردتهـا؟؟ ثم إن كلمـات المعلم حـامـد الواعـيـة التى تحـمل أكـثـر من مـعنى ، وأرغمتهـا على التفكير فيها قد سببت لها الإزعـاج ، وشوهت لديها كبرياءها العائدة ، وتذكـرت عبارته الأخيرة «الناس هنا لا يأخذون كلام النسـاء مأخذ الجد . . » يا له من رجعى حقير . . لـم يزل يتـمسك بتلك الأفكار العـفنة البـاليـة . . منطق القـرية التعسة التى تحيا فى أحضان الذل والجهل من مئات السنين . . لشـد مـا أغـاظتـهـا تلك الثـقـة السـمـجـة التى تبـدو فى نبـرات صوته . .

وفى المساء لـم تستطع «منال» أن تبقى وحيدة بحجرتها ، لقد ازدحـمت فى رأسـهـا الصـغـيـر الجـمـيل عـشـرات الأفـكار والحوادث ، مـشـاكل مكررة متعـبة جلبت لهـا الضـيق والملل ، حـاولت أن تتجاهلها لكنها كـانت أقوى من أن تدفع ، وشعـرت بميل جـارف للبكاء ، وحنَّت إلى صـدر أمـهـا الدافئ كى تلقى برأسها فوقه وتبكى . . تبكى حتى تخف حدة انفعالها ، ويزول

توتر أعصابها، وهرولت إلى الخارج. وفى طريقها إلى عنبر المرضى بدا لعينيها المقهى القريب الذى يملكه المعلم، وضوء باهر يغرق المقهى كشلال من الضوء، والمذياع تنبعث موسيقاه رنانة شجية، وقطع الطاولة، وصوت ارتطامها يصل إلى سمعها، وقهقهات رجال، ومواويل، وتأوهات، ونباح كلاب، ونقيق ضفادع لدى شط الترعة المجاورة، وأنين ساقية فى الحقل المجاور، وفوق رأسها نجوم تلمع فى السماء الصافية، وأشباح تتحرك عبر الطريق الممتد أمام المستشفى. . وأفاقت منال إلى نفسها ثم قصدت لتوها السرير الذى يستلقى فوقه الباشكاتب عبد المعطى، وقربت مقعدها منه، وهى تقول:

- الليل طويل. . والجو حار. . لم أستطع النوم مبكرًا. . ومن ثم أتيت إليك. .

وسُرَّ عبد المعطى أيما سرور، هل كان يحلم بأن يرى منال فى الصباح والمساء، وينعم بالقرب منها أطول مدة ممكنة؟؟ لقد كان يفكر منذ لحظات فى طريقة ليستدعيها بها، حتى ولو ادعى المغص الحاد كى تأتى إليه، وتعطيه عقاقير مسكنة، لكن ليتها. . لم تقل ما قالت، حسبتها أتت لأنها تحب الجلوس معى، أما أنها لا تأتى إلا فرارًا من الليل الطويل والحر والأرق فهذا مزعج. . ولم يستطرد عبد المعطى فى تأملاته؛ لأنها قطعت عليه حبل تفكيره حين قالت:

– من الأقوى فى هذه القرية يا عبد المعطى؟؟

وابتسم عبد المعطى ابتسامة العالم النحرير بعد أن أفاق من الدهشة التى انتابته لغرابة السؤال، وقال فى اعتداد:

– سلطان القرية هو التقاليد التى ألفوها جيلاً بعد جيل.. ومن يخرج على العرف والتقاليد لا بد أن ينتهى إلى هاوية سحيقة.. ولم يبدُ على منال أنها اقتنعت تمام الاقتناع بما يقول، بل ربما كانت تقصد شيئًا آخر ولهذا قالت:

– وماذا غير التقاليد؟؟

– لا أفهم..

– أريد أن تذكر لى رجالاً لهم كلمة وبطش وسلطان..

فسكت هنيهة ثم قال:

– الشيخ المداح..

– مَنْ هو..؟

– من رجال الله.. صاحب السلطان الروحى.. شيخ الطريقة الأحمدية.. كل رأس فى شرشابة تنحنى له، وكل شفة قبّلت ظاهر راحته.. يستمد سلطانه من الدين والسيرة العطرة.. كلماته أمر، ورأيه لا يقبل النقض.. فى السبعين من عمره.. الشخص الوحيد الذى لم أمسه بسوء.. وحاشا لله.. هو الخير والبركة فى هذه الديار..

وقبل أن يكمل حديثه، قالت منال في عجلة:

- ثم من يأتي بعده؟

- الحاج على. .

- مَنْ يكون؟ . .

- من رجال الدنيا يساوى عشرين فدانًا من أجود الأرض أخوه حكمدار البحيرة، وله أسرة كبيرة شرسة وخمسة من الإخوة الأشداء، في عنفوان شبابه في السابعة والثلاثين. . ليس له خصم إلا وسحقه. . وشيخ بلد. . أنت تعرفينه. .

وقالت وهى أشد ما تكون ضيقًا ولهفة:

- ثم مَنْ؟

وران الصمت بضعة لحظات، ومنال تنتظر على أحر من الجمر، وارتعشت شفتاه، وشاب حركاته ارتباك ظاهر وهو يقول:

- العبد لله. . يعنى. . أنا.

- أنت. . قوى. . ؟

أفلتت منها دون أن تحترس، وأدركت على الفور أنها ربما قد تكون آذت مشاعره، وسخرت من غروره، فكيف يكون من عتاة الرجال وهو العليل، الفقير الذى ينتسب إلى أسرة-

برغم كثرة عددها- متواضعة الحال، وأحنى عبد المعطى رأسه للصفعة التى لم يكن يتوقعها، وقال:

- ألا تذكرين حين قال لك الطبيب يوم لقائنا الأول أنى أهم شخص فى شرشابة.. قد يكون مغاليًا، لكن..

فقاطعته قائلة:

- متأسفة.. لم أقصد الإساءة إليك..

فابتسم عبد المعطى فى ألم.. إنه آخر ما تفكر فيه دائمًا برغم أنها تسكن قلبه، وتملأ عالمه كله، بل هى أبوه وأمه وأصدقاؤه.. كل شىء هى بالنسبة له، وغالب ألمه وأساه، وقال فى نبرات واجفة:

- الحرب فى هذا الزمان أصبحت معركة عقول يا ست منال.. قنبلة ذرية من مكان بعيد تنسف آلاف الرجال، وتخرب المدن، ولا يقف فى وجهها الملايين من الرجال حاملى المدافع والسيوف.. وأنا هنا أقوى رجل فى شرشابة.. بعقلى.. وقلمى..

فقالت مداعبة:

- لعلك اكتشفت قنبلة ذرية أخرى يا عبد المعطى..

فشاركها الضحك، لكنها لم تمهله طويلاً، واستطردت قائلة:

- ومن بعدك من الأقوياء؟

- لا أحد . .

وفوجئ عبد المعطى حينما سمعها تقول وهى تركز نظراتها فى وجهه :

- والمعلم حامد المليجى؟ تكلم بصراحة . . ألا تعده من الأقوياء؟ .

ولم يجد عبد المعطى مناصبًا من أن يقول كلمة الحق برغم كرهه الشديد له :

- لا أنكر أنه قوى . . إنه خبيث داهية . . يملك المال والرجال المخلصين . . إنه بمثابة طابور خامس . .

- طابور خامس؟؟

- أجل . . هذا الوغد يعطى الفقراء كثيراً . . يبعثر المال . . يكسب كثيراً وينفق كثيراً . . تصورى أنه يتصدق بالحشيش على الفقراء المدمنين . . الطابور الخامس مال وذكاء . .

- إنه أقواكم . .

- ربما لكن قوته ليست فضيلة . . عشرة أفدنة وخمسة آلاف جنيه فى البنك رأس مال لا يستهان به . . بعض ضعاف النفوس يبيعون أرواحهم وأجسادهم بالمال . . أما أنا فأعيش بلا مال . . لكن .

- لكنك شريف . . مرهوب الجانب . .

- بالضبط . .

وتشعب بهما الحديث من موضوع إلى موضوع، وتلك المملكة الصغيرة- القرية - هى مدار الحديث، ناسها وتاريخها وأحداثها، وطرائفها، ومن آن لآخر تشرد منال لبضع لحظات، وتحلق فى أفق خيالها ابتسامة واثقة هادئة، ونظرات ثابتة ينطلق منها بريق يثير الخوف والشهوة، ووجه حليق أسمر- بل قمحى اللون- وجه رجل تعرفه وتخافه وتبغضه و . . وتميل إلى غموضه وتبجحه . . إنه المعلم حامد المليجى . .



[٨]

عادت منال إلى القاهرة بعد شهرين من استلامها العمل، كانت تهرول إلى القطار تغمرها اللهفة، ويدفعها الشوق والحنين، كل شيء حولها يضحك، وبالرغم من حرارة الجو، ولزوجة العرق، ورائحة المسافرين والطعام وبقايا الفواكه المبعثرة، كانت سعيدة تتقبل كل شيء بقبول حسن، وتغتفر المضايقات التى صادفتها أثناء الطريق، وشعرت أن القطار- رغم اندفاعه كالسهم المنطلق - أبطأ مما يجب، حاولت أن تتغلب على قلقها ولهفتها فألقت برأسها على حاجز المقعد، لكنها تململت فى ضيق بعد أن عجزت عن جلب النوم، ثم اشترت مجلة وصحيفة يومية، وأخذت تقلب الصفحات فى عصبية، ولا تكاد تبدأ فى القراءة لبضعة سطور حتى يعاودها الملل من جديد، فتكتفى بالنظر إلى صور الفاتنات ونجوم المجتمع، ثم تزحف ببصرها إلى السينما والإعلانات التى تتحدث عن أحداث الروايات المعروضة

على الشاشة البيضاء أو على خشبات المسرح، وقذفت بالأوراق فوق رف يعلوها، وعادت تجتر مللها وصحتها وقلقها، وتناهى إلى سمعها صوت فى آخر العربة يترنم بصوت جريح لكنه جميل مؤثر:

يا نجمتين اشهدوا لى أحسن أنا مظلوم

نجمة تروح اليمن، نجمة تروح الروم

الناس بتعشق صبايا كعبها مبروم

وأنا عشقت النبى راح له الجمل مخزوم

وأعاد إلى ذهنها ذلك الصوت الجميل الجريح ذكرياتها لدى مسجد السيدة زينب، والميدان الواسع الذى يعج بالزّوار والعاشقين، وأحباب أهل البيت وجموع الذاكرين وهم ينتظمون فى حلقات، ينحنون ويستقيمون، ويتطوحون ذات اليمين وذات اليسار هاتفين باسم الله.. موحدين مكبرين.. وصوت المنشد يعلو بقصائد المديح والخمريات وأغانى المتصوفين الذين يذوبون شوقًا وحنينًا، فتغلبهم الحماسة وتسيل الدموع، وتزداد حركاتهم عنفًا وقوة، حتى يسيل عرقهم، وتسقط الطواقى والعمائم من فوق رءوسهم، وكلمات تصدر فى حرقة «مدد يا سيدة.. نظرة يا أم العواجز.. مدد يا رسول الله».

والحادى ينشد متمايلاً فى نشوة:

يا بنت الأطهـار أنا المحتـار داوينى

جدك له مـعجـزات ملأت دواوينى

يا تاجر الخمـر املأ الكاس وناولنى

بأيدى حلـلتـهـا والشـرع ناولنى

وغـرقت منال فى ذكـرياتهـا الحلوة العطرة.. ذكـريات الطفولة السـمحة البريئة فى حى السيدة زينب، حتى نسيت تمامًا ما حولها من ناس وروائح وحرارة تسيل العرق، وذلك الرجل الذى يترنم بالمواويل، وأنصـاف القروش التى تتسـاقط فى يده الممدودة.

وحينما بدت من بَعيد مآذن القاهرة، وعماراتها العالية التى تنفث عن صراعها وكدحها بدخان أسود، خفق قلبها خفقات حلوة شهية، وتمنت أن تطير بجناحين وترتمى فوق أحد تلك المشاهد وتمرغ جسدها وروحها فوق ترابها، كانت لهفتها أقوى من لهفة العاشقة المدلهة التى تنطلق للقاء حبيبها، وظلت هكذا مخدرة الحواس، شبه حالمة حتى ابتلعتها المدينة الكبيرة.. الساحرة.. بناسها وعرباتها الكثيرة وضجيجها ورائحتها المثيرة، وعادت أخيراً منال إلى أحضـان أمهـا الكبرى - القاهرة- وسرعان ما أحست بالدعة والسلام والسكون،

وانجابت عن نفسها سحب القلق والغربة والوحدة . . هذه الشوارع والمباني ومن يعج بها . . جزء منها بل هي حياتها وذكرياتها وأشواقها، وركبت ترام رقم (٤) قاصدة السيدة . .

- تذاكر يا ست . . مشط بقرش . . مشابك . . دبابيس . . حبال غسيل . . سكر نبات . . يجلو القلب . . ويفتح النفس يا سلام . .

وحينما نقرت الباب نقرات خفيفة، وسمعت وقع أقدام بالداخل، غمغمت :

- إنها أمي . . يا حبيبتي يا ماما . . افتحي . . بسرعة . . أنا منال .

وألقت برأسها بين أحضان أمها، وأحاطتها بذراعيها في تشبث وقوة وضغطت . . ضغطت كأنما تخاف أن ينتزعها أحد منها، ويفرق بينهما، وأجهشت بالبكاء، وأغرقت صدر أمها بدموع كثيرة غزيرة؛ دموع الشهرين الطويلين التي أخذت تتجمع حتى وجدت متنفسًا أخيرًا فتدفقت . . ثم رفعت رأسها، وأرخت ذراعيها، وانتصبت واقفة وأهدابها السمراء الفاتنة مبللة بالدموع، وطبعت أمها قبلة أودعتها كل حبها وحنانها فوق خدها الرطب، وقالت منال وهي تشرق من الدموع وتبتسم ابتسامة سعيدة :

- أوحشتني يا ماما . . لم أكن أصدق أن أراك مرة ثانية . الغربة ملأت قلبي بالخوف والقلق . . آه . . لكم أحبك . .
وتمتمت الأم وهي تغالب دموع الفرح :

ألف حمد لله على سلامتك يا روحي . .

وأرادت الأم أن تبدد جو الانفعال الصاخب الذى شحنت به ابنتها المسكن ، فقالت مداعبة وهى تقرص خدها فى حنان :

- لقد اكتسبت بشرتك سمرة فاتنة . . وها هو صدرك ازداد نموًا ، وامتلأ عودك . . إن شمس الريف وجوها مفيد جدًا كما أرى .

وابتسمت فى خجل وغمغمت :

- الفراق يا أمي . . آه لو تعلمين . .

- أكل العيش يا ابنتى . . لا تحزنى . .

وتذكرت منال العشرين جنيهًا التى ادخرتها من مرتبها ، واحتفظت بها فى حافظة نقود أودعتها فى صدرها مخافة أن يسرقها أحد ، أول نقود تحصل عليها من عرق جبينها ، وشعرت بالسعادة العظمى وهى تتخيل نفسها جالسة أمام أمها تعد لها العشرين جنيهًا . . واحدًا . . واحدًا . . وملامح أمها تنطلق بالسعادة ، ولسانها يلهج بالثناء عليها ، وهبطت من أحلامها المحلقة على صوت أمها يقول :

- نحن نبذل محاولات كبرى لنقلك من الريف . . والأمل كبير . .

- صحيح يا أمى؟

- بالطبع، وإذا لم تنتقلى إلى القاهرة، فليكن فى مكان قريب منها حتى تستطيعى السفر والعودة يوميًا لتكونى بيننا . . آه لشد ما تشوقت إليك . . كان خطابك كنزًا ثمينًا بالنسبة لى، فأضمه إلى صدرى فى حنان . . وأقرؤه عشرات المرات . . بل وأحلم به . .

فقاطعتها منال قائلة :

- تمامًا مثلما كنت أفعل . .

وألقت منال بنفسها مرة أخرى بين ذراعى أمها، ثم أخذت تقبلها من كل مكان فى وجهها وهى تزداد شوقًا والتصاقًا بها كلما بسطت لها الأم صفحتى وجهها الواحدة تلو الأخرى، وانتزعت منال نفسها فجأة ثم فرت إلى حجرات الشقة، وأخذت تدقق النظر من جديد، وقالت فى انفعال وصدرها يعلو ويهبط :

- أين إخوتى؟؟

- أوه . . لقد نسيناهم . اطمئنى . . كلهم بخير . .

- أين هم . .

- في السينما . . ثم استطردت قائلة :

- لشد ما أزعجوني بسببك . . كل ساعة وكل لحظة ، يقولون أين أبلة منال؟؟ ألن تعود؟ ومتى تعود؟ نريد أن نراها . . سوف نسافر إليها ، ونسأل عن شرشابة هذه كي نبلغها ولو كانت في آخر الدنيا . . بل إن أخاك الصغير قد جمع في «الحصالة» قروشًا كثيرة ، وكان يقول دائمًا سوف أعطيها للكمسري كي يأخذني لأبلة منال . . وذات ليلة ظل يبكي من أجلك حتى نام . . والدموع فوق وسادته . . هؤلاء الخبثاء المشاغبون يحبونك أكثر مما يحبونني حتى كدت أغار . .

وأخذت منال تسأل عنهم واحدًا واحدًا ، وتستفسر عن كل شيء حدث طوال المدة ، وتلح في طلب التفصيلات - التافه منها والمهم - وسرعان ما تبتر الموضوع ثم تنتقل إلى غيره دون تمهيد ، كانت مثل جائع أمامه مائدة عامرة بشتى ألوان الطعام والشراب ، فتدفعه شدة الجوع لأن يأكل بسرعة ويختطف من هذا وذاك ، حتى يمتلئ فمه؟ مخافة أن يختطف أحد ما أمامه .

وتنهدت منال في ارتياح . . وجففت العرق المتساقط على جبينها . . وتمتمت :

- زجاجة كوكا كولا يا ماما . . ما هذا البخل؟؟

وقالت الأم وابتسامة عريضة تضيء وجهها المتغضن من أثر السنين الأربعين:

- عيون ماما . .

وأسرعت الأم صوب الباب كي تنادى صبى البقال المقابل، بينما استلقت منال فوق حشية الأريكة الخشبية، وأخذت تنظر إلى منضدة السفرة المتآكلة، والمفرش البالى النظيف الذى يغطيها، والكراسى الخشبية الستة التى تحيط بها، ثم رفعت بصرها إلى الصورة الكبيرة المعلقة قرب السقف، صورة أبيها الراحل بشاربه الكث، وطربوشه المحبوك، و «البابيون» الذى يبرز تحت ذقنه المدببة وجاكتة من الطراز القديم، وعينيه الواسعتين اللتين تطيلان النظر إليها وكأنهما تبثانها الثقة والشجاعة على مجابهة الحياة وصعابها حتى تحمل الرسالة من بعده وتكدح من أجل تربية إخوتها، وسعادة أمها، وتمتمت فى ألم بالغ:

- الله يرحمه . .

واجتاحتها فى هذه اللحظة موجة داهمة من الحزن العميق.

إحساس رهيب مؤلم كان يخالط مشاعرها كلما نظرت إلى أبيها فى الصورة، إذ سرعان ما تتذكر كلماته وهى صغيرة: يا منال . . احذرى الرجال . . لا تفرطى فى شرفك قيد شعرة . .

سوف أنزعج فى قبرى إذا ما سمحت ليد رجل كى تمتد إليك بخبث ونذالة . . نحن فقراء . . رأس مالنا الشرف والشرف هو ستر الله . . الناس يا ابنتى يتهمون مجتمع البنات فى القصر العينى . . وأنا أقول لهم بملء فمى المسألة مسألة أخلاق . . كانت هذه الكلمات تطن دائمًا فى أذنيها كلما نظرت إلى صورة أبيها . . لكنها مع ذلك . . فى البيت الكبير الذى تأوى إليه الفتيات فى القصر العينى نسيت ذلك وهى تستمع إلى زميلاتها . . ونسيت ذلك أيضًا فى الضوء الخافت . . فى الليل . . فى كشك السهر عند «نوبتجيتها» . . وفى طرقات القصر العينى فى الساعات الأخيرة من الليل . . ونسيته أيضًا وهى سهرانة فى مستشفى الوحدة المجمعة بشرشابة حين كانت تجد نفسها وحيدة مع الدكتور رمزى . . أجل نسيت نفسها وسمحت لبعض الشفاه الساخنة كى تمر على ثغرها ووجنتيها . . ولم تجد القوة أو الشجاعة الكافية كى ترد الأيدى تدفعها وتثير اللهب والنشوة والخدر فى جسدها . . هذا كل ما فى الأمر . . لكنها على أية حال خطيئة . . وخيانة لوصايا الأب الذى يرقد- لا شك- متألمًا فى حفرة مظلمة تحت الأرض . . لحظات ضعف عجيبة لم تستطع أن تقهرها وتفرض سلطانها عليها . . «لكن أعدك يا أبي مرة أخرى أنى لن أعود لهذا المستنقع . . كل ذلك كان شيئًا سطحيًا ولهوًا

تماديت فيه، ومن السهل أن أطفئ الجمرة الخبيثة التى تحرق جسدى، وتلهب روحى.. بضعة أكواب من الماء البارد.. كلمات وقحة نابية جارحة أوجهها لنفسى.. وللأوغاد، سرعان ما تقف بنزواتنا عند حد، وتوقظنا من أحلامنا الساذجة المجنونة..».

- كوكا كولا يا حبيبتى..

- شكرًا يا ماما..

وتدافعت لدى الباب نساء الشارع- خاصة الجيران- ومعهن أطفالهن، وبعض الرجال.. البقال وصبيه، المكوجى، بائعة الفواكه على ناصية الحارة المجاورة، الجزار القريب، الجميع أخذوا يتوافدون، واحدًا بعد واحد، وكلماتهم لا تخرج عن:

- حمدًا لله على السلامة يا ست منال..

- يوم الهنا يا حبيبتى..

- ألف نهار أبيض..

- أين الفطير المشلتت والقشدة الفلاحى..؟

وأم منال بدت وكأنها فى عرس، تعد أكواب الشربات، وتوزع على الجميع، والبعض يصر على طلب القهوة أو الشاى، ومنال تبتسم.. وتبتسم حتى تعبت عضلات فمها بعد أن كثرت

المجاملات والأحاديث والترحيب المكرر، حتى بقى فمها مفتوحًا فى ابتسامة جامدة لا تنطفئ، ومن آن لآخر تربت على كتف طفل صغير، أو تقبل خد آخر، وتبعثر بينهم الشيكولاته والطوفى، والأطفال يتعاركون ويملئون الصالة الضيقة بظياطهم ومعاركهم الصغيرة، وأبوها بعينيه الواسعتين فى الصورة يركز نظراته فى عينيها فترتجف كلما وقع بصرها عليه، وتسودها غمرة ألم سرعان ما تذوب فى الضجيج وعبارات الترحيب التى لا تترك لها فرصة كى تسكن أو تستريح.

وفى الوقت الذى عاد فيه إخوتها بلهفتهم الكبرى، وأذرعتهم الممدودة النحيلة، وابتساماتهم المختلطة بالدموع، أخذ الضيوف والجيران ينسحبون، مخلفين وراءهم نفايات وأوراقًا ممزقة وآثار بلل وذبابًا يلتصق بالأماكن اللزجة التى سقطت عليها قطرات الشربات من قبل، وجلست منال بين إخوتها ناضرة سعيدة ضاحكة الوجه، وجلسوا من حولها.. وردة شذية متفتحة كبيرة، وحولها زهرات صغيرة لم تتفتح تمامًا بعد..

وفى الصباح اليوم التالى طرق بابهم زائر غريب..

فحملقت الأم فيه مستغربة.. وهى تقيسه بنظراتها الحائرة، وتتساءل بينها وبين نفسها عمن يكون..

●●●

[٩]

أنا الحاج على . .

قالها الرجل الشامخ الأنف وهو يحيل نظراته فى الأم الحائرة الواقفة لدى الباب، ولم يزدها النطق باسمه سوى حيرة إلى حيرتها، ورجحت الأم أن الشاب الريفى ذا الجلباب الجوخ الأخضر، والعمامة الأنيقة، والعنق الغليظ، والذى تبدو عليه معالم الفتوة والثراء، رجحت أنه لا بد قد أخطأ قصده، ونزل مكانًا غير الذى يريد، ولم يكن هناك احتمال آخر، لهذا قالت :

- تشرفنا . . لكن أعتقد أنك قد أخطأت عنوان المسكن الذى تبحث عنه . .

وكم كانت دهشتها حينما سمعته يقول :

- لم أخطئ . .

- كيف؟؟

- أليس من الأليق أن تسمحى بالدخول أولاً.

- نحن لا نعرفك.. اسمح لى أن أقول ذلك..

- لكن الآنسة منال تعرف من أنا.. أنا الحاج على.. شيخ بلدة شرشابة..

لم تتعود الأم أن تستقبل فى بيتها منذ مات زوجها هذا النوع من الرجال، لكنها أمام موقف مختلف تمام الاختلاف عن أى موقف آخر، رجل من الريف، وذو مكانة، وابنتها موظفة فى قريته، وجاء قاصداً بيتهم لأول مرة، ولهذا لم تجد مناصًا من أن تفسح له الطريق، وتفتح حجرة الاستقبال المتواضعة التى نادراً ما تفتح، وراودها قليل من الخجل لتواضع الأثاث ورثاثته، وحانت منها التفاتة إلى الباب فوجدت الرجل يدخل ومعه عدد من القفف والأقفاص الثقيلة، وبلغت خياشيمها رائحة الفطير والسمن البلدى، وسمعت أصوات بعض الطيور المحبوسة فى أقفاصها من حمام ودجاج وأوز، ووضع الرجل ما معه فى ركن من أركان الصالة، وهو يقول:

- كنت على موعد مع أخى.. حكمدار البحيرة.. فوجدتها فرصة طيبة لكى أزور الآنسة منال فى عطلتها.. إن منال لها فى قلبنا منزلة كبرى.. كل شرشابة تحبها.. وتعبدها

عبادة، وكأنها بنت البلد من عشرات السنين، وليست مجرد موظفة نزلت قريتنا. . وفرصة ذهبية أيضًا أن تتعرف على حضرتك أنتم ناس طيبون. .

فابتسمت الأم مجاملة، وقالت:

- من أصلك. . الريف كله خير وبركة. .

وأخرج الرجل من جيب داخلى ساعة ذهبية نظر فيها، ثم أعادها مكانها، وبعد ذلك أخرج علبة سجائر فاخرة، وسحب منها واحدة، سرعان ما أشعلها، وأخذ ينفث دخانها مداريًا بعض ما أصابه من ارتباك طفيف، بينما خرجت الأم لتعد له مشروبًا باردًا. .

وأخذ الحاج على يتشمم رائحة منال، وكأنه «كلب هول. .» وسدد أذنيه صوب الباب لعله يلتقط صوتها أو يتسمع وقع خطواتها، لكنه لم يلتقط حسًا ولا حركة تنبى عن ذلك كانت خطوات أمها الثقيلة الثابتة، وتحركاتها التى تصدر بحساب. . هما كل ما أدركه. .

ومسح الحجرة بنظراته. . آثار الفقر. . تبدو على المقاعد. . والمناضد الخشبية القديمة. . وطلاء الجدران الباهت، والبساط المتآكل وابتسم فى ثقة، وكان هذا المظهر المتواضع قد جعله الله عونًا له وسندًا فى قضاء ما جاء ينشده. .

وتمتم: «لا شك أن منال وأمها وإخوتها يحلمون بحجرة صالون فاخرة.. وبساط أعجمي ثمين.. ويتمنون أن ينتقلوا إلى شقة واسعة نظيفة.. وفي حي محترم، وهل هناك من لا يتمنى ذلك ويحلم به؟؟»، وتنهد الحاج على فيما يشبه الارتياح، وأخرج منديله الحريري الأبيض، وأخذ يجفف العرق الذي لم يزل يتصبب فوق جبينه، ثم تحسس شاربه المشذب وعمامته المحبوكة، ومسح بيده على صدره مستشعراً ملمس جلبابه الجوخ المريح، ونزل ببصره إلى حذائه اللامع ثم عصاه ذات اليد العاجية، وترنم في صوت خفيض منغم بأغنية كان يسمعها دائمًا من منشد الموال في مقهى المعلم حامد المليجي «جمال ودلال يا حبيبي»..

وتذكر كل ما حدث له منذ البداية..

الحورية الجميلة - منال - التي أشرقت على قرية شرشابة فأدارت رأسه، وسرقت النوم من عينيه، وبات يفكر فيها طوال شهرين كاملين، ويتسقط أخبارها في المستشفى وخارج المستشفى ويحصي كل حركاتها وسكناتها، ويطيل الجلوس على المقهى المجاور، ويظل ينظر إلى بعيد فيراها وهي تغدو وتروح، ويتبعها حتى تختفي عن ناظريه تمامًا، ثم لا يكف عن متابعتها بعد أن اختفت، بل تظل صورتها في خياله، فيتصورها وهي تدلف إلى حجرة العمليات، أو تصعد إلى

عنابر المرضى، أو تجالس الطبيب فى الكشف «آه . . هذا الوغد الأنيق، الذى تتدلى «السماعة» من عنقه فى عنجهية وكبرياء . . لا شك أنه خبيث . . تعلم من المدينة وقاحتها وانحلالها . . ».

لكنه - الحاج على - لم يستطع فى يوم من الأيام أن يجبر نفسه على التحدث إليها، كان فى نظر الناس عملاقًا ذا كبرياء، لم ولن يطأطئ رأسه لامرأة، رغم أنه أعزب، المرأة كانت فى نظره شيئًا تافهًا . . للمتعة العابرة، ولا يصح لرجل فى مركزه ومكانه أن يدوس كبرياءه وسمعته ليجاذبها أطراف الحديث، ويجتذب رضاها . . الحاج على ليس شابًا مراهقًا صغير العقل، عندما يريد شيئًا يقصد التوه، رافعًا رأسه، وينتزعه انتزاعًا، ليس التوسل والتضرع من طبعه . . حتى فى المسجد بين يدى الله، يقف متغطرسًا، ويؤدى طقوس العبادة فى عنجهية . . فإذا ما أنهى صلاته، واستدار قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله» قالها بصوت أجش، وهو ينظر نظرات التعالى والكبرياء . . كان جائعًا . . والمائدة على قيد خطوات منه، لكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على تناول شىء منها . . فليمت جوعًا ولا هذا . . شىء أصيل فى طباعه وتكوينه . . وعندما علم أن المعلم حامد معجب بها ويسيل لعابه اشتهاء لها، ويطاردها ويدعوها لزيارة بيته، أكلت الغيرة قلبه. وبات

الليالى الطوال يتقلب على أحر من الجمر، ويفكر جادًا فى الانتقام منه، لكن المعلم حامد صديقه منذ الصغر، بل أصدق أصدقائه، أكلا على مائدة واحدة.. حتى «الجوزة» وعليها «الحشيش» مرصوصًا.. كانا يتبادلانها من فم لفم، فضلاً عن أنه ند له فى السطوة والأتباع والمال.. وكظم حنقه وأساه حينما سمع المعلم يقول ذات مرة: «إنها امرأة بمعنى الكلمة.. إنها النعيم.. جنة الدنيا.. يا عالم.. هذه الحورية سوف تورثنى الجنون.. عندما أمسكت بذراعى وأعطتنى حقنة خلاصة الكبد ذات مرة، لم أدرِ من أنا.. ذهب عقلى، وأحسست بيدها اللدنة وهى تضغط على ذراعى.. فتهت فى عالم آخر..»، وهمّ الحاج على آنذاك بالانقضاض على عنقه وخنقه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. لكنه سكت على مضض.. وطوال الشهرين كان الحاج على يفكر حتى أرهقه التفكير، ولم يعد يستطيع النوم كل ليلة إلا ساعتين أو ثلاث.. إن غيره يحلم بها من بعيد.. مجرد أحلام، ويهرول وراءها كالكلب ليلقى عليها التحية، أو يقدم لها خدمة ليست فى حاجة إليها، أما هو فيريدها إلى جواره.. بين ذراعيه له وحده.. وعندما يتم ذلك سوف يسحق الديدان القذرة التى تعترض طريقها، ويدمى الأفواه التى تتفوه باسمها، وتطلق همسات الإثم الوقحة.. حتى المعلم حامد هو الآخر، لو

سولت له نفسه أن يمتعض أو ينافسه فسوف يدفنه حيًا، ويهيل عليه التراب . . واحتقن وجهه وهو يستعيد تلك الذكريات، ويجتر هاتيك الأفكار، وعروس فاتنة كحور الجنة، تتهادى فى خياله، وعلى رأسها تاج من الفضة، نظراتها ناعسة، وابتسامتها قاتلة، واستدارة فمها كقبلة الربيع فوق الرياض الرائعة ذات الأريج والجمال الأخّاذ، ودار رأسه، غير أن أمها دخلت حاملة كوبًا من عصير المانجو، فهتف :

- أين ذهبت منال؟ . .

- حالاً تعود . . ذهبت مع إخوتها إلى حديقة الحيوان للتنزه . .

- هل ستطول غيبتها؟

- لا أظن ذلك . .

وشعر بالضيق بداية الأمر لغيابها، كانت تملأ روحه رغبة عارمة فى رؤيتها، والاستمتاع بحديثها وطلعتها، حتى لكأنما قد فارقت شرشابة من سنين وليس بالأمس، لكنه تذكر السبب الذى أتى من أجله، والليالى الطويلة التى قضاها فى التفكير، والنتيجة الحتمية التى وصل إليها بعقله، والتى صنعها فى الوحدة . . والظلام . . والسهاد . . والتى لا يعلم بها أحد فى شرشابة، ولا يمكن أن تخطر على قلب بشر هناك . . وماذا لو

عرفوا سيتهمونه بالجنون، شيخ بلد محترم مرموق وأخوه حكمدار. . تزوج حكيمة. . «ها. . ها. . ها. . ليقولوا ما شاءوا. . بعض الناس لا يعرفون قيمة الجواهر»، وجدتى كانت دائمًا تقول: «القلب وما يريد» وفى قصص ألف ليلة وليلة أمير تزوج ابنة زبال. . وملك سكب الدموع على قدمى فتاة يتيمة تجمع الأحطاب لتبيعها بدراهم. . وملك بريطانيا رمى بالتاج وزهد فى الملك من أجل امرأة. . »، والتفت إلى الأم وقال وهو يشير إلى الأقفاص والقفف:

– هدية بسيطة تافهة. . أرجو أن تقبليها. .

– ولِمَ التعب؟

– التعب من أجلكم راحة. . عيوننا للست منال. . ولأم منال. .

فأطرقت السيدة فى حياء أمام هذا الإطراء، وقالت مجاملة دون أن تعتقد تمامًا فى صحة ما تقول:

– منال تحبكم. . وتطوى لكم فى قلبها أجمل الذكريات. . أنتم هناك بمثابة أهلها، وليس لها أحد إلا أنتم. . بارك الله فيكم. .

ووجد الحاج على الفرصة سانحة أمامه كى ينفض ما فى قلبه ويستريح، لكنه كان خائفًا. . ونادرًا ما يخاف. . هذا

العملاق القوى البنية، صاحب الجاه والقوة، تلعثم كطفل صغير أمام أب قاس رهيب، وتعثرت الكلمات ثم توقف نهائيًا، تحركت شفتاه فقط، لكنه لم ينطق، وأجال نظرة فى الحجرة المتواضعة الأثاث، والمناضد الصغيرة القديمة، والحيطان الباهتة الطلاء، واسترق نظرة لوجه الأم المتغضن الذى يروى قصة كفاح طويلة عميقة، قصة صراع مع الحياة القاسية، وواتته الشجاعة بغتة.. يجب أن يتكلم قبل أن تأتى منال.. أجل لأن منال فى نظره جبل عال ذو جبهة فى السماء ليس من السهل تسلقه، والتفت إلى الأم، وقال فى لهجة مهتزة:

- لنكن صرحاء يا حاجة.. تعودت دائمًا أن آتى البيوت من أبوابها.. شرشابة كلها تعرف من يكون الحاج على.. شيخ البلد.. لست فلاحًا جلفًا.. ربما تظنين ذلك، فأسرتنا عريقة، أخى حكمدار البحيرة.. أبى رحمه الله كان عمدة القرية.. حفظت القرآن لكنى لم أكمل تعليمى لظروف خاصة.. بالاختصار بنتك تعرف من أنا.. وبالاختصار أيضًا.. أقول إنى أتيت طالبًا يدها.. أخطبها لنفسى.

وكأنما الرجل قد رمى عن كاهله عبئًا ثقيلاً قد أرهقه منذ زمن بعيد، وأورثه الهم والعذاب والأرق، وتنفس الصعداء، وانتابته فى هذه اللحظة مشاعر عدم الاكتراث بعد أن قال ما

قال وكأنه يهتف بينه وبين نفسه: «ليكن ما يكون، لقد أبنت عن دخيلة نفسي.. واسترحت.. والبقية على الله..»، أما الأم فقد ارتج عليها، وباغتتها العبارة الأخيرة، ولم تدرِ ماذا تجيب لكنَّ صوت الحاج على لم يدع لها فرصة للتفكير، بل قال مستطردًا:

- هيه.. ما رأيك؟؟

- إنك لم تمهلني كي أفكر.. لم أكن أتوقع شيئًا من هذا القبيل.. ثم إن منال لم تزل صغيرة.. ولا أفشي سرًا إذا قلت لك.. إننا قوم فقراء.. مثقلون بالديون.. علينا التزامات يجب أن نؤديها.. ومنال هي أملنا الأول والأخير، وإخوتها الصغار يجب أن يتعلموا حتى ينالوا حظًا معقولاً من الحياة.. إنها لمسألة شائكة حرجة، ولا أدري كيف أعالجها.. ألست معي في أن الوقت لم يزل مبكرًا بالنسبة لموضوع زواج منال!؟

في هذه الكلمات الموجزة ألقت الأم ضوءًا على وضع الأسرة الراهن، وبرغم الآلام التي نشبت أظافرها في قلب الحاج على الذي لم يتعود أن يرفض له طلب، أو يقال له لا.. سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بالرغم من كل هذا، فقد بقي الأمل حيًا في قلبه وإن غلفته ظلال من الشك والخوف، لهذا قال:

- كل هذه المشاكل من السهل تسويتها . . وإنى لآخذ على نفسى عهدًا أن أقوم بسداد كل ديونكم، وأتكفل بكل مطالب البيت والأولاد . .

فقالت الأم والدهشة لما تفارق ملامحها ونبراتها :

- هذا فوق الطاقة . .

- إنى أضحى بكل شىء من أجل منال . .

- لكن إلى حد . .

- يا سيدتى، لست طفلاً ولا مراهقًا . . وإنما أنا رجل ناضج ذو مركز، وأفهم ما أقول ومن العار أن أتملص من وعودى . . الجميع يعرفون ذلك . .

الرجل لا تعرفه الأم لأول مرة تلقاه، وهو يحاول مخلصًا أن يذلل كل الصعاب والمشاكل، ويبدو مصرًا غاية الإصرار على تنفيذ رغباته، وهى عاجزة تمام العجز عن أن تبرم الأمر بهذه السرعة، إنها خطوة خطيرة . . مستقبل ابنتها، ومستقبل أسرة عاشت على الكفاف حتى أتمت الفتاة تعليمها، فى انتظار الفرج، والقضاء على كل الضائقات المالية والمشاكل . . تجربة جديدة من نوعها بالنسبة للأم . . منال تتزوج يا له من أمر كبير . . ليس بهذه البساطة . .

- أنا جاد فيما أقول، وأستطيع أن أنفذه قبل الزواج . . ديونكم . . رصيد لأولادكم أضعه باسمك فى البنك . . كل شىء أنا مستعد له . .

ضاقت الحلقة حول عنق الأم، وأصبح الموضوع واضحًا مبسوطًا أمامها بكل تفاصيله وحلوله، وبدايته ونهايته، ولمعت فى ذهن الأم بارقة أمل، ومن ثم لم تواصل صمتها بل قالت، وكأن عناية الله قد قذفت فى رأسها بهذا الحل الموقف :

- يا حاج ليست هناك أم عاقلة تضيع على ابنتها مثل هذه الفرصة، والأم يسعدها أن ترى ابنتها زوجة . . وزوجة سعيدة . . لكن ألست معى فى أن منال لها رأيها هى الأخرى؟؟ ألا يصح أن تمنحنا فرصة لعرض الأمر عليها والتفكير فيه؟

- فقط . . أريد أن أعرف رأيك أولاً؟

فقالت الأم وابتسامة قلقة ترتسم على ثغرها :

- ألا ترى أن الأمر يخصها أكثر منى؟؟

- لكنك أمها . .

- أجل . . لكنها هى التى ستتزوج . .

- خبرتك فى الحياة، وقلقك من أجل مستقبلها يجعلان الأمر أمرك . .

- لا شك . . لكن قد تختلف تقاليدنا هنا عنكم فى القرية . . لى أن أدلى بمشورتى لها ، وأساعدها بالرأى ، ولها بعد ذلك أن تختار ، من الصعب أن يكون الإرغام وسيلة مشروعة فى مثل هذه الأمور .

فتمتم الحاج وهو يشعل سيجارة أخرى :

- معقول . .

كانت منال فى هذا الوقت تمرح فى حديقة الحيوان بالجيزة ، وتنتقل بإخوتها من مكان لمكان ، وتشترى لهم الحلوى والمشروبات المثلجة ، وتعيش معهم فى جو مرح لطيف أشاعت فيه مشاعر الحب والأخوة والأمومة أيضًا ، كانت سعيدة بهذه اللحظات الحلوة التى تقضيها وسط الأشجار ، وبين أقفاص الحيوانات ، ومسارح الغزلان والنعام ، ومرت بذهنها صورة خاطفة للقرية التى تعمل فيها ، لم تكن ساخطة تمامًا عليها وعلى الحياة فيها ، والأحداث التى تلم بها ، لشد ما تطورت نظراتها ، وأصبحت واقعية وجدية ، إنها - حتى فى هذه النزهة - تتشوق للمستشفى ولمشاغبات حامد المليجى ، وأيضًا للشائعات - برغم وقاحتها - وللطبيب برغم نظرته النفعية للحياة ، ورغم عبثه وحيوانيته ، ليس من السهل الانسلاخ عن حياتها وعملها والناس الذين تتعامل معهم . . أوه . .

والباشكاتب عبد المعطى . . ذلك اللئيم الخفيف الظل ذو الوجه الأصفر والعقل اليقظ المدرب . .

وعندما بدأت الشمس تنحدر عن وسط السماء، وشعرت- هى والأولاد - بمعدتها تتقلص طلبًا للطعام، هرولوا جميعًا صوب باب الحديقة، ليتعلقوا بأول أتوبيس يقصد حى السيدة زينب.

ودخلت المسكن وهى تثير ضجة مرحة، وإخوتها يتسابقون ويضحكون، لكنها لاحظت على وجه أمها سمات الجد والوقار، فرجحت على التو أن أمرًا مهمًا يشغل بالها، ولم تمهلها الأم طويلاً، فقد قالت لها:

- الحاج على هنا من ساعة . . وقد استعد للرحيل قبل أن تأتى بلحظات . .

وأشرقت ملامحها بالابتهاج، واندفعت صوب حجرة الجلوس، وكأنها اكتسبت حرارة الريف فى استقباله للضيوف، وحفاظه على تقاليد الترحيب والكرم، وهتفت:

- أهلاً حاج على . . مصر كلها نور بوجودك . .

وابتسم الرجل فى سعادة . . ترى هل تتحقق الأمانى . . ؟؟

●●●

[١٠]

عادت منال من عطلتها بعد ثلاثة أيام، لم تمر الأيام الثلاثة دون عواصف، لذا كان استمتاعها ناقصًا، وفوجئت بعرض الحاج على الذى لم تكن تتوقعه، واستطاعت بعد جهد جهيد هى وأمها أن يقنعا الرجل بالانتظار، حتى ينضج الموضوع فى أذهانهم، برغم أن منال أبدت الرفض بادئ الأمر بينها وبين أمها وإن كانت قد عاملت الحاج برقة زائدة، وأبدت له الكثير من ضروب المجاملة، وعاد الحاج هو الآخر دون أن يفقد الأمل الذى يداعب أحلامه، وبعد أن سافرت منال جلست أمها وحيدة تبكى، كانت واثقة أن ابنتها سوف تبدأ عهدًا جديدًا من المتاعب؛ لأن الرجل- كما يبدو- عنيد مصر إصرارًا جازمًا على ما يرد . . كيف تعيش ابنتها غريبة وعلى مقربة هذا الرجل الذى لم يستطع أن يقوله له أحد «لا»؟؟ وكيف سيكون سلوكه إزاءها فى تلك القرية النائية، ولم يكن أمام أمها سوى أن تبذل قصارى جهدها فى نقل ابنتها، ولو أدى ذلك للتضحية المادية . .

أما منال فقد كان فى انتظارها مفاجأة جديدة لم تكن تخطر لها على بال . .

وصلت منال إلى القرية فى المساء، كان الطبيب فى انتظارها بالكشك المعهود . . والمستشفى هادئة خافتة الضوء كمألوف عادتها، واستقبلها الطبيب فى بشاشة وشوق، وصافحها بحرارة، كانت منال تشعر بإنهاك روحى وجسدى، أما إنهاكها الروحى فقد كان سببه الأحداث الجسام التى أثارها الحاج على، وإنهاكها الجسدى فسببه ذلك السفر الطويل المضنى وألقت بجسدها المتعب فوق مقعد إلى جوار الطبيب، وتشعب بهما الحديث عن السفر والأهل والأقارب وأحوال المستشفى، ثم سادهما صمت مطبق، وشعرت منال بالتعب يزايلها، وبقليل من الانتعاش يسرى فى كيانها فصعدت أنفاسها فى ارتياح، وشردت بفكرها حول الحاج على والخطة التى ستنتهجها معه، إن حياتها الجديدة تحتاج إلى انقلاب شامل، إلى تخطيط لبق دقيق وإلا ضاعت . . إنها لا تحب الحاج ولا تفكر إطلاقًا فى الزواج منه، إنه ما يكون عن روحها وقلبها وثقافتها . . ليكن أخوه حكمدارًا فهى لن تتزوج الحكمدار، وليمتلك ما شاء من أفدنة ومال وبطش ورجال فهى لا تريد «ميليشيا» حولها، ولا تطمع أن تتناول طعامها فى ملعقة من ذهب، وتشرب فى كأس من فضة، إنها لم تخلق لمثل هذا الرجل، ولا لمثل هذه الحياة،

ثم إنها أضعف من أن تتحدى رغبة هذا المخلوق وسطوته . .
هؤلاء الرجال- فى القرية- يعيشون بعقلية الفرسان، مثلهم الأعلى أبو زيد الهلالى، المرأة التى يرغبون فيها ينتزعونها انتزاعًا، يختطفونها على أسنة الرماح . . ليس هناك من حل سوى الفرار . . الفرار بجلدها من هؤلاء الطامعين . . ليست بمستطيعة وليس من المصلحة أيضًا أن ترفض فى وضح النهار، وتجابه المنهزمين، إن نار الهزيمة وحقدها كليهما أعمى . . شرس لا يعرف العدالة ولا الرحمة . .

وانتفضت «منال» كمن لدغتها حية، حينما شعرت بشىء رقيق ناعم مفاجئ يتحسس خصرها وهبت مذعورة، لترى ماذا حدث، وقهقه الطبيب، وهو يرى الرجفة تسرى فى كيانها، والشحوب يسود وجهها، كانت يد الطبيب هى التى تداعبها فى خبث، وتستثير أنوثتها وأدركت منال فى لحظات ما حدث، وعلى الفور تذكرت الرجل ذا العينين الواسعتين اللتين تطيلان إليها النظر دائمًا فى حنان ممزوج بالقسوة . . عينى أبيها وهو يحدثها عن الشرف والفضيلة وحسن الخلق، وقبل أن تنطق بشىء، عاد الطبيب فمسك يدها وهو يكاد يسيل رقة وعذوبة، ويقول:

- لماذا تخافين؟؟ الحب والمداعبة لا يثيران الفزع، وإنما يولدان النشوة، ألم تجربى من قبل؟

فقالت فى شراسة وحدة :

- لا يا دكتور . . يجب أن تكف عن هذا وإلا . .

- لشد ما تغيرت .

- أجل . .

- حالتك ليست على ما يرام . .

- بل فى كامل صحتى وقواى . . بأى حق تفعل ذلك . . ؟

فقال فى غضب مصطنع :

- إنك تؤلمينني بهذا التصرف الأبله ، لماذا تفلسفين اللحظات السعيدة وتشوهينها؟ .

- لأنها سرقة . . اغتصاب . .

- ولِمَ لم تقولى هذا الكلام من قبل؟ .

- أرجوك . . لا داعى لتجريحى . . لا أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا . .

وأطرق الطبيب فى يأس ، «يبدو أنى لم أختر الوقت المناسب» ، ومع ذلك فقد راوده الأمل من جديد ، فقال وهو يدارى غضبه :

- لا بأس ، قد تكونين أحسن حالاً فيما بعد ، لقد عزمت

على قضاء لحظات سعيدة- أنا وأنت- بالإسكندرية فى عطلة آخر الأسبوع . .

- تستطيع أن تذهب أنّى شئت . . أما أنا فلا . . ليس لأحد سلطان علىّ . . مفهوم؟! .

وأخرج الطبيب علبة سجائره . . وأشعل واحدة، كانت السيجارة ترتعش بين أصابعه، ووجهه أحمر فى لون الدم، ينفخ فى عصبية، وتمتم فى لهجة حانية خفيضة :

- إنى أعتذر . . يبدو أنى كنت سيئ التصرف لحد كبير . . معذرة يا صديقتى . . ثم إننا لم نفعل إلا ما يفعله الكثيرون .

- أوَ تظن من اللائق أن نتخذ العابثين والخطاة مثلاً أعلى نقتدى به؟؟

- عندك حق . .

ورفع نظره إلى وجهها الفاتن المكفهر، وشفتيها المزمومتين فى غضب، وعينيها الساهمتين فى وجوم، وشعرها المنتشر فوق جبينها البض المشرق، كانت رائعة فى غضبها، مغرية فى صدودها ونفورها، وتمنى فى تلك اللحظات أن يشدها إليه، ويهوى على وجهها ونحرها، ويأكلها أكلاً، ويخمش هذه البشرة البضة حتى يشبع ويرتوى . . إنه غارق فى العمل صباحًا ومساء . . فى العمل المشروع بالمستشفى وغير المشروع

فى بيوت فلاحى القرية والقرى المجاورة، إنه لا يكاد يجد لحظات هادئة كهذه، وفى هذه اللحظات يفكر فى أمره . . فى مستقبله ويفكر أيضًا فى مطالب روحه وجسده، ويحس بحرقة شديدة إلى امرأة، إلى الجنس الآخر . . وأطال فيها النظر من جديد، وزحف ببصره فوق شعرها وجبينها وعينيها وشفتيها، وصرخ كحيوان جائع جريح :

- تستطعين أن تفعلى ما شئت . . اصرخى . . استغيثى . . أما أنا فلست بمستطيع أن أقاوم فتنتك الطاغية . .

ووثب عليها كوحش مفترس، واحتواها بين ذراعيه وقد ماتت الصرخة التى همّت أن تطلقها فوق شفتيها، ولفحت أنفاسه الحارة وجهها، وتلاصق جسده بجسدها، وشعرت كأنها قد ثوت فى أخدود من جسده الدافئ الثائر، وشعرت أيضًا بضعف مريع . . إنها لحظات الضعف التى كثيرًا ما تتناولها إذا ما قهرها رجل، ولم تكذب على نفسها لقد كانت فى هذا الوقت- برغم ثورتها ونقاشها الحاد مع الطبيب حول المثل العليا، والحقوق والواجبات- برغم كل ذلك كانت تحس بحاجة شديدة إلى رجل . . رجل يحميها، ويبعد عنها غارات الذئاب الراغبين فيها وإن كان هو بدوره ذئبًا مثلهم، كانت فى حاجة إلى رجل تبثه ألمها وحيرتها وشجونها، وتسكب على

صدره دموع الحيرة والضعف والخوف، ولم تجد معها سوى الدكتور رمزى الشره الجائع المثقف الأنيق . .

غير أن المشهد المثير لم يكن قد اكتمل بعد، كانت هناك عين لا تنام . . عين ترقب كل ما يجرى داخل الكشك بين الطبيب ومنال، إنها عين الباشكاتب عبد المعطى . . الذى لم يعرف الراحة طوال أيام ثلاثة مضت، كان يقف كل يوم خلف زجاج نافذة عنبر المرضى ساعات طويلة فى النهار والليل، وينظر إلى بعيد فى انتظار عودتها حتى كلت يمينه اليتيمة، وأصابها المرض، ومع ذلك بقى خلف النافذة الزجاجية يرقب روحه التى ذهبت بعيداً، ويرسم لها فى خياله صورة شفافة نورانية وهى بين أحضان أمها، ووسط إخوتها، وفى شوارع القاهرة التى تضج بالحركة والحياة، وبقى هكذا حتى عادت، كان يحس بقرب مجيئها فيخفق قلبه خفقات حلوة ويستشعر ألماً . . ألماً مقبول المذاق، وكاد يقذف بنفسه إليها وهى تقطع الممشى بين باب المستشفى ومبانيها، ويختطفها بين أحضانه، لكنه تذكر الحقيقة المرة المعذبة . . إنه لم يزل فى الدور . . الثانى . . وفى عنبر المرضى . . ثم إنه الباشكاتب عبد المعطى . . العليل الفقير الذى يأخذ سمسرة على المرضى الخصوصيين من الطبيب، والذى يلتقط البقشيش كما يلتقط الكلب لقمة خبز تقذف إليه من بعيد . . ألم تحاول منال نفسها أن تعطيه بقشيشاً حينما

أحضر لها الخطاب؟؟ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه . . لكنه يحبها فى جنون . . ولا يستطيع مخلوق ولو كان الشيطان نفسه أن يقف حائلاً بينه وبين منال، ومن ثم هرول عبر السلم قاصداً الكشك الذى يجلس فيه الطبيب مع منال، لكنه تراجع قبل أن يدلف إليهما، ليس من اللائق أن يتزل عليهما هكذا بسرعة دون سابق إنذار، وبدون سبب واضح، وقبل أن يلتقط أنفاسه اللاهثة، أخذ يروح ويجيء حول الكشك فى حيرة، وحانت منه التفاتة إلى نافذة صغيرة، وحينما نظر خلالها رأى منال تجلس فى استرخاء، والطبيب إلى جوارها يأتى بحركات مرتبكة غير طبيعية، ثم عاد إلى التدقيق فى وجه منال، وتمتم: «يا لها من ليال ثلاث يا عبد المعطى . . ترى ماذا أفعل لو غابت شهراً . . لو انتقلت إلى وحدة صحية أخرى؟؟ لا شك أنى سوف أجن . . إنها حلوة . . حلوة جداً . . حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . هذه الإلهة الصغيرة روحى تعبدها . . أستغفر الله . . أوشك أن أكفر . . رحمتك يا رب . . إنها معجزة خارقة . . »، وقطع عبد المعطى مناجاته حتى رأى يد الطبيب تزحف كالحية نحو خصرها، وكاد يحطم النافذة، ويعتصر عنقه لكن موقفها كان نبيلاً رائعاً . . وتمتم: «صدق ظنى . . إنها أكبر من أن ينالها أحد بسوء . . إنها محجبة . . » وفاضت به السعادة وإن كان قد حنق أيما حنق على هذا الوغد العابث . .

وتمنى أن يذهب إليه، ويقول: «أيها الملاك.. ملاك الرحمة.. إنى أبصق فى وجهك..» وطاب لعبد المعطى المقام جوار النافذة، وبقى هكذا حتى كرر الطبيب المحاولة بصورة عنيفة جدية، وخاف عبد المعطى أن تتحطم أحلامه وينال الوغد مشتهاه.. فدار حول الكشك قاصدًا الباب وهو يغلى.. لكنه غمغم لنفسه: «تمهل يا عبد المعطى.. أين لباقتك ودهاؤك؟ يجب أن تكون خبيثًا مثله.. يكفى أن تفسد خطته، وتنقذ المسكينة من براثنه بطريقة مهذبة.. شيطانية»، فابتعد قليلاً.. ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه فى قوة كى يسمعا وقع أقدامه، وصاح وهو يقترب من الباب من جديد:

- يا دكتور.. يا دكتور.. الحق.. المريض سوف يموت من شدة المغص..

كانت منال هذه اللحظة بين ذراعى الطبيب فى شبه إغماءة، والطبيب كثور هائج، وهبطت مسامعهما صيحات عبد المعطى وكأنها هادم اللذات.. فأفاقت منال إلى نفسها، وهزت رأسها وكأنها تصحو من حلم مثير، وتمتمت منال فى ارتباك والدموع توشك أن تنهمر من عينيها:

- لم يكن تصرفًا سليمًا..

وأخذ يصر على أسنانه فى غيظ، وصدره يعلو ويهبط،

والعرق الغزير يسيل فوق وجهه المحتقن، وأخرج على الفور سيجارة، ثم أشعلها بيد مرتعشة:

- حسنًا.. تستطعين أن تذهبى وتعطيه حقنة «أتروبين» حتى يزول المغص.. وكان عبد المعطى هذه الأثناء قد بلغ عتبة الباب، فوقف جاهدًا يحدق فيهما وابتسامة شاحبة مهتزة تلمح فوق شفتيه، ولم يحاول أحدهما أن ينظر إليه، وتمتم فى تعثر:

- حمدًا لله على السلامة يا ست منال، أوحشتنا كثيرًا..

- متشكرة يا عبد المعطى.. سوف أغير ملابسى فى لحظات، وألحق بكم فى العنبر.. تستطيع أن تسبقنى إلى هناك حتى أحضر الحقنة أيضًا وأعود..

ومشى عبد المعطى عبر الممشى الطويل، والظلام يغلف كل شىء ومن آن لآخر يلتفت إلى النافذة الصغيرة المضيئة وكأنها عين الشيطان، ثم يتطوح فى مسيره كالسكران النزق، وفى قلبه دموع تسح بلا هوادة، وبذرة من بذور الحقد تنمو.. تترعرع فى قلبه الكسير المحطم الناقم، ويهتف حانقًا: «الذئاب.. الذئاب.. هذه الفراخ الصغيرة الرقيقة كيف تأمن على نفسها منهم؟».

وفى الوقت نفسه كانت منال تلم شعثها لتقصد حجرتها،

وترتب ما تهدل من هندامها أثناء السفر وبعد السفر، وقال الطبيب وفى نبراته معنى الأسف والاعتذار :

- لا أظن أن عبد المعطى قد شك فى شىء . .

- أعتقد ذلك . . لأن صوته بلغنا قبل أن نرى وجهه . .

●●●

وعندما عادت منال من حجرتها، وقصدت لتوها عنبر المرضى، وهمت أن تصعد السلم، برز لها فى الظلام المعلم حامد المليجى، قال والبسمة نفسها فوق شفتيه :

- لا تخافى . . أنا هنا مريض . . جئت لإجراء عملية الزائدة الدودية . .

ولم تنطق منال بل بقيت ساكنة لبضع لحظات، ولما همت بأن تواصل صعود السلم، أمسك المعلم بذراعها، وقال فى صوت جريح :

- مبروك . .

- ماذا تقصد؟؟

- أقسم أن الحاج على كان عندكم فى مصر . .

- وكيف عرفت؟ .

- سمعت أن هناك شيئًا اسمه الحاسة السادسة . .

ونزعت منال ذراعيها منه والدهشة تستولى على أقطار نفسها، لكنه لم يعطها الفرصة كى تفلت، بل قال فى إصرار من يوقن بقدرته :

- لن يتزوجك غيرى . . الآن اصعدى السلم إذا أردت . .

●●●

[١١]

- آه . . يا إلهى . . أريد أن أنام . . رحمتك يا رب . . قالتها منال فى يأس قاتل، ووضعت راحتها فوق جبهتها فوجدتها تلتهب، والصداع شديد المراس لا يؤثر فيه الأسبيرين، ومشاهد كثيرة مؤرقة تتوارد على ذهنها المكدود المشوش، والفراش تحتها قد نبا بها ، وكأنها مصنوع من أشواك . . من مسامير حادة، والبعوض يطن من حولها فى صفاقة، ويلتصق ببشرتها الرطبة فى عناد، ولا تكاد تدفعه حتى يعاود السقوط من جديد . . حتى بعوض شرشابة هو الآخر يضايقها، ويساهم فى عذابها ! !
وأخذت تتقلب فى فراشها حانقة، والصور المتلاحقة تفرض نفسها فرضًا على ذهنها، وهى تدفعها فى عنف، ثم فى رفق وتوسل، ولا فائدة، وصرخت فى حنق: «لا أريد أن أتزوج . . لعنة الله على الزواج» ولم تستطع أن تستغرق فى النوم إلا عندما ظهرت فى الأفق الشرقى طلائع الفجر . .

●●●

وغادر عبد المعطى المستشفى إلى بيته بعد يومين من عودة منال، وكان لخروجه سبب، فقد جاءت إليه منال فى اليوم التالى، آملة أن ترفه عن نفسها بالجلوس معه، والاستماع إلى نوادره وأشعاره التى تبدأ وتنتهى - فى الغالب - بمدح النبى والصلاة عليه حتى ولو كانت قصائد غزل، واستطاع عبد المعطى بمهارته وروحه المعنوية المرتفعة أن يخفف عنها كثيراً من الآلام، وأن ينسيها - إلى حين - ما يأخذ بخناقها من مشاكل عدة، واستلقت منال على ظهرها من الضحك، وأشرق وجهها بالمرح، كانت تريد أن تغرق فى الضحك، وتذيب همومها فيه، إن مشكلتها أكبر منها، وليس ثمة وسيلة سوى الفرار . . والفرار فى بعض المعارك قد يكون خطة موفقة، وحلق عبد المعطى بروحه فى عالم وردى وضّاء الأسارير حينما وجد منال إلى جواره تضحك من أعماقها وتميل عليه دون تحرج، وتقرصه من خده، أو تضربه على صدره ويده فى دلال، فنسى نفسه فى خضم اللحظات السعيدة الفريدة . . وانتابه حينذاك شعور غريب . . شعور خاص لا يلم بالنفس إلا فى أوقات نادرة . . وبدا له أن كل شىء طوع يمينه . . الناس . . الحياة . . والأمل . . شعور يخيل إليه إزاءه أنه قد أصبح ملكًا صغيراً له تاج، يأمر فيطاع . . ومنال بجانبه لا حواجز ولا تكلف، هى منه وهو منها . . تمازجا قلبًا وقالبًا . . فقال فى نبرة واثقة لينة :

- منال . .

- نعم يا باشكاتب . .

- أريد أن أعترف . .

- لست قسيسة . . وليس لدينا كرسى اعتراف . .

- إنى جاد . .

- تكلم يا مضروب . .

- أنا أحبك . .

وضحكت منال بصوت عال، ضحكت كما لم تضحك من قبل، وأخذت تضربه وتقرصه فى عنف وهو مخدر الروح والحواس لا يكاد يحس شيئًا، فأطال إليها النظر بعينه الوحيدة، وقال:

- مرة أخرى . . أعترف إنى أحبك . .

- دمك خفيف . . والنبى ظريف . .

وواصلت ضحكها وشغبها، أما هو فقد بقى واجمًا، مرتعش الشفتين، يعلو وجهه الشحوب، ناظرًا إلى بعيد، إلى عالم رائع بعيد المنال لا يراه أحد إلا هو، ثم عاد فقال بصوت أجش قوى ينطق بالإصرار والعناد:

- لِمَ تضحكين؟؟ أقول لك . . إنى أحبك . .

- أتريد أن تتزوجنى أنت الآخر؟؟.

فتمتم فى قلق:

- أنا الآخر؟؟ هل هناك من رغبوا فى ذلك حقيقة؟

فقالت وعلامات المرح والسعادة لم تغادر ملامحها:

- أنت نائم.. الحاج على.. المعلم حامد المليجى.. وأنت أيضًا.. أنتم الأقوياء الثلاثة فى شرشابة.. ترغبون فى الزواج منى، لم يبقَ سوى الشيخ المداح فتتم الرواية فصولاً.. هيا انزلوا إلى الحلبة.. واحملوا سيوفكم وأنا للمنتصر..

- أحقًا حدث ذلك؟

- أوَ تعتقد أن الحاج على قد سافر إلى القاهرة لوجه الله؟ وهل تظن أن المعلم حامد فى حاجة إلى عملية الزائدة الدودية فعلاً والإقامة هنا فى المستشفى؟

وفاض بها الغيظ، وعادت إلى ذهنها صورة المشاهد المتعبة التى ما فتئت تلح عليها من آن لآخر، وصرخت حانقة:

- أيها الأغبياء.. أنا أربى أيتامًا.. أحافظ على كيان أسرة، ثم إنه لم يمضِ علىّ بينكم أكثر من شهرين. وأنت يا عبد المعطى.. ألمَ تجرب الفقر..؟ كلكم ذئاب وتشتهوننى.. فاكهة جديدة.. يسيل لعابكم من أجلها.. تقليعة مثيرة تلفت

النظر . . لو كان لى أسرة وعصبية لقطعوا ألسنتكم . . انظر إلى الحاج على والمعلم حامد، إنهما صديقان منذ الصغر . . كلاهما قوى، لم يستطع أحدهما أن يواجه الآخر . . لكنهما واجهانى منفردين . . وأنت . . أنت أيها المسكين . . أما كان الأجدر بك أن تفكرِ فى صحتك . . وأسرتك . . ولقمة العيش؟ أقسم أنك لو تقدمت لبائعة فجل فى شرشابة لسخرت منك . . لكنك تواجه غريبة مثلى دون خوف . . وسقط عبد المعطى من عليائه . . من العالم الوردى الرائع الذى وشاه له خياله المريض الساذج، وصحا على الحقيقة المرة . . إن بائعة فجل لا ترضى به . . وبدت منال أمامه كبيرة شمّاء، ذات عقل ومنطق رزين وقح، لم تفكر فى ماضيه . . فى أقلامه وأوراقه، ولا فى كفاحه من أجل إنشاء هذه الوحدة المجمعة ومستشفاها، ولم تفكر فى قلبه الذهبى، ولا فى حبه الكبير الذى بنى هيكله من دمه وروحه وآماله، وتمتم فى حسرة تمزق نياط القلوب:

- سامحك الله . . لم أقصد الزواج منك . . فقط أردت أن أعبر لك شعورى . . أردت أن أقول إنك كل شيء فى حياتى . . سواء ضايقك هذا أو لم يضايقك لكنى أعدك وعدًا جازمًا . . وهو أنى سوف أقلم أظافر الذئاب التى تحوم حولك . . الحاج على . . المعلم حامد و . . والطبيب هو الآخر إنه نذل نجس . .

وأدارت منال رأسها إليه فى دهشة، وقد طرقت سمعها العبارة الخاصة بالطبيب، وقالت:

- مَنْ قال ذلك؟.

- لا تحاولى أن تنكرى..

- إنك تهرف بما لا تعى..

- لقد سخطت على الحاج والمعلم.. و.. وعلىّ أنا أيضًا.. وتجاهلت الطبيب.. أو تظنين أن أناقته ومركزه يغفران له سخافاته؟؟ إن عينى لا تنام.. واعذرينى إن كنت ألجأ إلى تلك الوسائل الخسيسة لتتبع تحركاتك وأنباتك.. لم أكن أقصد الإساءة إليك كنت شريف الغاية..

معنى ذلك أنه كان يتجسس عليها، ويرصد حركاتها وسكناتها، ويحرمها أبسط حقوقها الشخصية فى التصرف بحرية وانطلاق، وآلمها أن يصل الوضع إلى هذه الدرجة الشنيعة من الاضطهاد والتضييق.. إنها تكاد تختنق.. لكأنها زهرة غريبة غرست فى تربة غير تربتها وفى بيئة غير بيئتها، كل هذا ومع ذلك يقول لها إنه شريف الغاية، وهتفت منال فى غيظ:

- شريف الغاية.. حسنًا.. تمامًا مثل الدبة التى قذفت بحجر كبير ذبابة كانت تقف على وجه صاحبها فقتلته.. أليس كذلك أيها الأريب الذكى.. الـ.. شاعر؟؟

فقال عبد المعطى وهو مطرق أسفًا :

- هذه قسوة . .

- إنها نذالة منكم جميعًا . . هذه القرية مملوءة بالذئاب والبعوض والذباب . .

- إنك تقتليننى بذلك . .

- وأنت تهبنى الحياة الحرة التى تخصنى كإنسانة ! ! كنت أحسب الفلاحين أطهارًا بسطاء . . هادئين لكن للأسف . .

فتمتم عبد المعطى وعيناه مخضلتان بالدموع :

- نحن طيبون . . بيض القلوب . . قد نسىء التصرف ونخطئ بغير قصد . . ولأستعير كلماتك . . مثل الدبة التى قتلت صاحبها حينما همّت بقتل الذبابة . . اعذرينى نحن قوم نعيش فى جهل وجوع وغرور لسنين طويلة . . أو تقبلينَ عذرى ؟ ؟

وانتصبت واقفة دون أن تجيب ، وقصدت من فورها إلى حجرتها ، وأرسلت للطبيب بطاقة تستأذنه فى الراحة باقى اليوم فى حجرتها ، لوعكة طارئة ألمت بها .

هذا ما حدث بينها وبين عبد المعطى ، وهكذا خرج من المستشفى محطمًا يائسًا ، يثقل روحه الندم والفشل والعذاب ،

وإن كانت حالته الصحية قد تحسنت كثيراً، وأصبح كبده فى حالة غير سيئة، وجرى الدم فى وجهه، وتغلب على كثير من ذلك الشحوب الذى لازمه فترة طويلة من الزمن.

وعندما ارتمى فوق حصيره البالية فى الحجرة المختصرة الضوء فى بيتهم، نظر نظرة طويلة إلى الركن المعهود حيث تتكدس أوراقه ومحبرته وأقلامه، وقد تراكم عليها التراب.. وما إن جاء الليل حتى أحضر لمبة غازية مضاءة، و«طبلية» خشبية، ونشر أمامه الأوراق، وخلع ملابسه، وبقى لابسًا فانلته وسرواله الأبيض.. ملابس الشغل وسمى بسم الله الرحمن الرحيم، وأخذ يسطر الحروف الأولى فى كتاب الانتقام الأسود.. الانتقام من الأقوياء الذين يستهينون بضعف امرأة ويطاردونها ويضيقون حولها الخناق ويلاحقونها بالشائعات، ويسلبونها حرية الاختيار، حرية الرفض أو القبول.. وكان عبد المعطى هو الآخر جديراً بأن يعاقب.. لكن يكفيه ما تعرض له من قوارص كلامها، وسخرياتها الغاضبة التى نجرحت كبرياءه، وهدت روحه وكيانه.. كان فى رأس عبد المعطى ثلاثة رجال يكرههم بصدق وإخلاص.. يكرههم كما لم يكره أحدًا من قبل: الحاج على.. المعلم حامد المليجى.. الدكتور عزمى.. عندما يزول هؤلاء من الطريق سوف ترتاح منال.. وتنكسر حدة الصراع الرهيب..

وينهزم الذئاب . . الذئاب التى تعيش بعقلية الخطف والغدر والنهم . . المعلم حامد المليجى تاجر سموم . . والحاج على شيخ البلد قاطع طريق . . متعجرف يحيا على أمجاد زائفة . . الطين الذى يملكه، وأخيه الحكمدار، وعصبيته الظالمة المتجبرة . . ينهب بضائع الجمعية التعاونية، ويأخذ من علف المواشى والسماد أضعاف أضعاف ما يستحق، ويحرم صغار المزارعين الضعفاء . . ويشجع العصابات واللصوص والخارجين على القانون ويحميهم ليكونوا له عونًا وسندًا . . والطبيب . . هذا النفعى الذى لا يفكر إلا فى المال والعربات الأنيقة وتكوين ثروة بأسرع ما يمكن . . لم يكن يصلح له إلا حزب من الأحزاب الجشعة التى عفى عليها الزمان . . إنه يمارس المهنة خارج المستشفى بغير حق، وأحيانًا يبيع عقاقير المستشفى لمرضاه الخصوصيين، ثم يحاول أن يسرق شرف فتاة مسكينة مثل منال . .

والآن لنكتب شكوى للمباحث الجنائية عن نشاط المعلم حامد المريب، ونحدد بالضبط المكان الذى يخفى فيه سمومه، والأوقات والأماكن التى يعقد فيها سامره المشئوم . . وشكوى أخرى لمدير المركز عن الحاج على وسرقاته فى الجمعية التعاونية وعبثه بقداسة الأمن، وقد ينقذه أخوه الحكمدار، ولذا يجب إرسال شكوى أخرى لوزير الداخلية . . مثل هذه الشكوى لن

يستطيع أحد أن يهملها . . أما الشكوى الأخيرة فإلى وزير الصحة فورًا، يجب أن تأتى حملة حقيقية سرية وعلنية للتأكيد من كل المخالفات والضرب على أيدى العابثين، والذين يخونون الثورة الكبرى والمبادئ الجديدة النظيفة التى تدعو إليها فى كل وقت، وفى كل مكان.

ولكن قبل أن أبدأ يجب أن أصفى حسابى نهائيًا مع منال، وأمسح ما علق بروحها الشفافة الطهورة من حزن وألم؟

وأمسك قلمه، وسطر كلمات قليلة: «عزيزتى منال . . أكرر أسفى لما حدث، لقد أخطأت خطأ جسيمًا لا شك فيه . . اعذرينى . . إنها لحظة ضعف وسوء تصرف . . سأكون دائمًا طوع أمرك . . لعلى أكفر عن خطأ بدر منى . . والله يقول: ﴿وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ . . وأنا كنت مريضًا . . ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] . . وأنا نصف أعمى» . . وأراد أن يقول وليس على العاشق الملهوف حرج، لكنه لم يستطع أن يتمادى . . ووقع الورقة، واستدعى ابن أخيه وأرسلها إلى منال . .

وابتسمت منال وهى تقرأ كلماته الوفية الصافية التى تثير الضحك والألم معًا، وأخذت تعيد فقراتها مرة ثانية، ثم وضعتها فى جيبها وشردت فيما حدث أمس الأول، لشد ما

كانت قاسية معه، جافة الطبع . . كانت جلادًا غليظ القلب يهوى على ضحيته بسوطه دون رحمة . . تارة هو دب . . وتارة أخرى ذئب . . قاموس من الكلمات الجارحة صوبتها إلى قلبه . . قلبه الذهبى . . إنها ترى فى عينيه شيئًا لا تراه فى عيون الآخرين . . شيئًا تدركه بروحها وقلبها أكثر مما تدركه بحواسها الظاهرة . . هذا الإنسان العليل الفقير الشاحب الوجه يحبها حبًا لو وُزِعَ على أهالى شرشابة لكفاهم وفاض . . وتلك هى الحقيقة التى شوهها حنقها وثورتها على مطاردة الذئاب لها . . أولئك الذئاب الذين تتمنى أن تنتقم منهم عندما تتاح لها الفرصة . . لكنها لا تستطيع أبدًا أن تنسى تلك النظرات القاهرة التى تصرخ بالشهوة . . وتبعث الرعب فى قلبها نظرات المعلم حامد المليجى . . هذا الرجل لا تفهمه مطلقًا، ما أسرع ما فهمت الحاج على . . فى جلسة واحدة . . وعبد المعطى هو الآخر لم تجد صعوبة فى فهمه . . والطبيب المثقف كان أسهلهم جميعًا فى فهم طويته ونواياه . . لكن المعلم إنسان غريب حقًا . . وتنهدت . . وحانت منها التفاتة فوجدت رسول عبد المعطى لم يزل واقفًا بالباب . . فأحضرت ورقة علاج وكتبت على ظهرها :

«عزيزى الباشكاتب . . أنا التى أخطأت . . وأظنك مقدرًا لظروفى التعسة يا عبد المعطى . . إن كنت قد أحببت إنسانًا فى

شر شابة فهو أنت . . أنت وحدك . . لأنك إنسان نبيل تعرف كيف تحب . . وكيف تخلص . . وإليك قبلاتى . . قبلاتى فقط على الورق . . وليس على القبلات الشفوية أى حرج . . » .

وانتعش عبد المعطى أيما انتعاش ، وصوت مذياع قريب يترنم «الحب من غير أمل أسمى معانى الحياة» ، وأكبَّ على الورق فى حماسة وهمة ، وتمتم :

- والآن نبدأ بابن المركوب . . الحاج على . .



[١٢]

لم يكد يمر وقت قصير حتى اشتعلت العواصف فى القرية، جاءت الكوارث يأخذ بعضها برقاب بعض، لقد أصابت الآفات شجيرات القطن الخضراء فجأة، وبدت الديدان الخبيثة الصغيرة وكأنها شياطين محجبة لا تجدى معها مقاومة، وبعثرت المواد الكيميائية أكداسًا فى الحقول وضج الفلاحون بالشكوى، وغصت بهم مساجد القرية، ووقف الشيخ المداح -شيخ الطريقة الصوفية- إمامًا لهم وصلوا صلاة الإغاثة، والألوف من خلفه يؤمنون على الدعاء، بقلوب واجفة تخاف هول المصير، وترتعد من المستقبل الغامض.. ولم تنفع الكيماويات والمبيدات الحشرية ولم تستجب الصلوات ولا الدعوات الحارة، وما هى إلا أيام قلائل حتى كانت أعواد القطن الخضراء تقف عارية وقد جفت أوراقها وهزلت هياكلها، كان مظهرها يوحى بالضياع والفقر وغضب الله.. ونساء يقفن على شاطئ الترعة، وعيونهن إلى الكارثة

الكبرى تطيل النظر، وشبح الغد المحزون يتراقص كئيبًا محنقًا، فتنفرط الدموع من بين أهدابهن، ويولولن وكأنهن قد فقدن عزيزًا لديهن . . والرجال يشيحون بوجوهم عن المشهد الحزين، ويضعون أكفهم فوق أعينهم لتحبس الدموع، وتدارى الأمل الضائع . . والثعابين الصغيرة القاسية تملأ الأرض . . وتلتهم حطب القطن الجاف.

وساد القرية وجوم كالموت . .

الديون المتكدسة لن يستطيع أن يسددها أحد . . والعرائس الحسان لن تدق لهن الطبول، ولن تقام حفلات الزفاف العامرة، والفلاحون لن يستطيعوا تسديد الإيجار للملاك، والعمال -الذين يجمعون الذهب الأبيض كل عام- سوف يتعطلون، لن يجدوا شيئًا يجنونه، ولن يفرح الأطفال بالملابس الزاهية الألوان، أو يذهبوا إلى مولد السيد البدوى فى طنطا مثل كل عام، ومتاجر القرية ومحلات الجزارة أصحابها لن يجدوا من يتعامل معهم . . وأصبحت القرية كمريض يحتضر . . لكن ساعات احتضاره تطول . .

وذات يوم خرج بعض الفلاحين يحملون فئوسهم الصغيرة، واتجهوا فى خطوات كليلة هدتها الكارثة وأرعشها الخوف من المستقبل نحو حقولهم، ما الفائدة فى ترك هذه

العيدان الجافة الميتة فى الأرض؟ إنهم لو تركوها فستكون مثل جثث متعفنة تثير الأسى والحزن، وتملأ الجو بالروائح الكريهة . . لا مكان للموتى بين الأحياء . . وهتفوا «عوضنا على الله»، وأخذوا يقطعون النباتات المصابة فى كل حوض من أحواض الزراعة، وفى العيون دموع . . وبدت بعض مساحات الأرض بعد ذلك سوداء مكهفرة عارية من كل شيء، والثعابين الصغيرة ما زالت تتمرغ فى التراب . . وعاشت القرية فى حزن وظلام وأسى . . عام طويل سيقضونه فى فراغ محزن يستدينون ويجوعون ويعرون، ستتوقف الحياة . . وتغيض المسرات . . ويطن البعوض، وتخور البهائم، وتلعق المزاود الفارغة . . وتموت الآمال لعام كامل . . وفى ظلام الليل تنطلق أصوات جريحة «ربك لا ينسى أحدًا»، وخطيب المسجد يقول: «سبحانه.. يسمع دبيب النملة السوداء، فوق الصخرة الصماء، يرزق الطير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا، والله هو الرزاق ذو القوة المتين..».

وجلس الباشكاتب عبد المعطى يفكر فى أمر أسرته الكبيرة العدد . . أبيه وأمه . . وإخوته وأبنائهم . . هذا الجيش الصغير أين يجد لقمة العيش؟ أيذهبون إلى الوسايا والتراحيل، أم يشتغلون خُدّامًا فى المدن؟؟ وفكر عبد المعطى طويلاً . . ليس هناك من حل سوى أن يرسل برقية استنجاد لأولى الأمر . .

لقد كتب ثلاث شكاوى فى الطبيب . . والحاج على . . والمعلم حامد . . فلمَ لا يرسل شكوى رابعة . . لا من أجل منال . . ولكن من أجلَ المساكين الذين يهددهم الفقر والإفلاس والجوع والضياع . .

كانت المأساة فى قمتها، ولا حديث للناس غير الآفة الخطيرة التى أكلت محصول العام، والناس فوق المصاطب، وفى القاعات الخافتة الضوء، وفى المساجد والحقول الجرداء والأسواق، لا يتكلمون إلا عن «الدودة»، ووسط هذه الأعاصير المزعجة، دهمت القرية ذات مساء قوات من الشرطة، واختطفت الحاج على من بين أفراد أسرته للتحقيق معه فى المخالفات الخطيرة الموجهة إليه، ووقف الرجل وفى يديه الأغلال مذهولاً حائراً، ومن حوله تجمهر الناس فى فضول وتساؤل، وقبل أن يركب الحاج على عربة الشرطة نادى إخوته، وهمس فى آذانهم :

- لا ترحموا الجانى . . إن الذى فعل هذا هو المعلم حامد المليجى . . وأنا أعرف السبب .

وفى الليلة نفسها ذهل الناس وهم يرون منزل المعلم حامد وقد شبّت فيه النيران والتهمت كل ما فيه، وما حدث للبيت حدث للمقهى المجاور للمستشفى، وقف المعلم بعين شاردة ينظر إلى النار الشرهة وهى تأكل عشه الحبيب، ويتصاعد

الدخان الأسود الغزير ليكوّن سحابة قاتمة مقبضة فى سماء القرية المنكوبة، وغمغم المعلم وهو يصر على أسنانه : -«ترى من الوغد الذى فعل ذلك؟؟»، فهز سمعه صوت رجل إلى جواره -«صح النوم . . إخوة الحاج على هم الذين أشعلوا الحريق، حسب وصيته قبل أن يرحل الليلة . . والقرية كلها تعرف ذلك . . »، فعلها صديق العمر المجنون، ظن أن الصراع من أجل امرأة، والسباق للفوز بها قد دفع المعلم عن أن يشى به، تمامًا مثلما ظن الحاج الظن نفسه . . تلاقت الشكوك، وتغيرت القلوب، وتحرك الحيوان الكامن فى نفس البشر . . القرية تحترق، وألسنة اللهب تمتد من بيت المعلم إلى ثلاثة بيوت مجاورة، وصراخ النسوة يملأ الأفق ويزاحم الدخان الأسود، وألسنة النيران تضىء المكان، وترتعش على الوجوه الشاحبة الحزينة، والباشكاتب عبد المعطى يندس بين الجميع، ويتمتم «من أعمالكم سلط عليكم» ولم تكد النيران تخمد، وينفض السامر، حتى انتحى المعلم وزوجته وأولاده جانبًا وقبعوا فى صمت وسكون حزين، وعيونهم تنظر إلى البيت المهدم والتراب الأسود يغطيه وينطبق بالبؤس والشقاء . . وجلس يفكر . . ماذا يفعل فى هذه الأسرة الصغيرة بعد أن احترق البيت والمقهى؟؟ وبماذا يعاقب صديقه الخائن الذى لم يكلف نفسه مؤونة التحرى الدقيق والبحث عن سبب الكارثة؟

ومن بعيد لمح المعلم أحد الخفراء يجرى ويلهث حتى اقترب منه، وقال :

- الحق يا معلم . . مباحث . . مخدرات . .

وانتفض المعلم كالملسوع، وسرعان ما وضع يده فى جيبه، وأخرج ورقة فضية لمعت قليلاً فى الظلام، ثم قذف بها بعيداً . . هناك فوق الأطلال المحترقة فوق التراب الأسود، وما إن فعل ذلك حتى أحاطت به أضواء مربكة، صادرة من كشافات بدت وكأنها عيون تضحك فى سخرية، وفتشوا المعلم فلم يعثروا للمخدرات على أثر فى جيبه، لكنهم طلبوا ملابسه للتحليل الكيماوى، وأخذوا يفتشون بدقة، وينبشون التراب الأسود الذى لم يبرد بعد، وحينما وجدوا قطعة حشيش على الأرض قال الضابط :

- لمن هذه؟؟

- لا أعرف . .

- كيف . . ؟؟ لا أحد غيرك هنا . .

فاغتصب المعلم ابتسامة باهتة، وقال فى هدوء عجيب :

- هى تخص من حرق بيتى وشرّد أولادى بلا ذنب جنيته . . يا حضرة الضابط . . الدنيا ليل . . ونوافذ كثيرة

وأسطح وأبواب تطل على هذا المكان . . ومن ساعة واحدة فقط كان هذا المكان يغص بالناس لإطفاء الحريق . .

ونظر إليه الضابط فى ريبة، وقال فى صوت جاف :

- هيا معنا . .

فالتفت المعلم إلى أم العز زوجته وهى متكورة تحت عباءة الظلام وإلى جوارها نام أطفالها على الرغم منهم بعد أن غلبهم النوم، وشعر برغبة جارفة فى البكاء، وقال وهو يمضى إلى عربة الشرطة :

- وصيتك الأولاد يا أم العز . .

فشيعته بعويل باكٍ طويل . . عالى النبرات يصدر من أعماقها المكلومة . .

وجلجل صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر «يا مؤمنين . . الصلاة . . الصلاة خير من النوم لقد فاز بالرضوان من سمع النداء . . ولبى الدعاء . . سبحان من أمات الليل وأحيا النهار . . »، وكانت العيون مؤرقة ولم تذق طعم النوم فى تلك الليلة الليلاء . . وتحركت الأشباح المكدودة المتعبة عبر الأزقة والحوارى صوب المسجد فى تراخٍ وتعثر، وكأنما المسجد مغنطيس يجذبهم إليه، جذبًا فى الميعاد كل يوم . . وعلى

وجوه الداخلين المكروبين علامات استفهام حائرة كالطلسم العسير، لا تعرف لها جوابًا ولا تفسيرًا . .

ما سر ذلك البلاء الذى نزل بأقطانهم، وأتلف محاصيلهم؟؟

ما سر تلك الحرائق التى اشتعلت فجأة، ولفحت بلهيبها المظلوم والبرىء، وأكلت الأخضر واليابس؟ ما الذى وجه أنظار الشرطة إلى القرية، فوفدت دورياتهم إليها تباعًا وفى ليلة واحدة؟

من يصدق أن المعلم حامد المليجى والحاج على ينقلبان من صديقين حميمين إلى خصمين لدودين؟ وتضاربت الآراء، وأدلى كل بدلوه فى الدلاء، كل يفسر الأحداث حسب هواء وتفكيره، وكان صباح الجمعة صباحًا مربدًا كثيبًا، ورجال الشرطة مبعثرون فى أنحاء شرشابة . . يتنسمون الأنباء، ويتصدون لأى اشتباك، ويضعون أيديهم على المناوئين والمشكوك فيهم، حتى يقطعوا دابر الحوادث، ويضعوا حدًا للصدام المتوقع، والقلق الذى سكن القرية، ويخمدوا ذلك الصراع الناشب، الذى ما برح يتقد فى الخفاء . .

●●●

وارتجفت أوصال منال عندما قال لها الطبيب :

– أنت فى وضع حرج يا منال . . وضع لا تحسدين عليه إطلاقًا؟؟

فقالت وقد شحب وجهها:

- كيف؟؟

- اسمك الآن على كل لسان فى القرية...

- أنا؟؟

- أجل.. لا تهربى من الواقع المر الأليم.

- إنهم ينهشون عرضى منذ أتيت هنا.

- لكن الأمر جد مختلف هذه المرة يا عزيزتى.. المعلم حامد فى السجن.. وبيته احترق.. عن آخره.. والحاج على هو الآخر مقبوض عليه رهن التحقيق.. والدماء توشك أن تجرى أنهارًا فى حارات القرية.. كل ذلك من أجلك.

فأجهشت منال بالبكاء، القرية من حولها تشتعل حقدًا وثورة، والعيون الفضولية ترمقها عبر الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستشفى فى شماتة وتحفز، الجو كله مشحون بالترقب والخوف، والنار التى لا تبقى ولا تذر، وربت الطبيب على كتفيها بيد مرتعشة ثم قال فى حيرة:

- لِمَ تبكين؟؟

- ما ذنبى.. ما ذنبى يا دكتور؟؟ هل أنا التى أحرقت وسجنت وأرسلت آفات المزروعات؟؟ هل حرضت أحدًا على

أحد؟ إننى أضعف من أن أحرك ساكنًا، أو أشعل مثل هذه العواصف المجنونة.

فأطرق الطبيب برأسه فى أسف، وقال:

- ليس الذنب ذنبك لا شك فى ذلك.. لكن الفلاحين الآن لا يفكرون تفكيرًا منطقيًا سليمًا، لقد أزعجتهم الكوارث المتتالية، وأطارت عقولهم، وهم يبحثون عن ضحية.. عن شىء يلصقون به أسباب البلاء النازل بهم، وفى الجو المكفهر لا يستقيم تفكير، ولا يصدق حكم، ولا يكبح جماح.. المأساة.. مأساة ظروف قاسية تتلظى بجحيمها.. مأساة عقول لم تنضج بعد، مأساة قمم بالية يجب أن يزال من فوقها تراب السنين الطويلة الممتلئة بالخيف والعذاب والارتباك.. القرية تخلق من جديد بعد أجيال ذاقت الهوان، والمدنية تزحف نحوها، وتفاعل عنيف مريع يحدث باختلاط القديم والجديد فيتصاعد الدخان والغازات والأبخرة السامة، ويتطاير الرذاذ.. وضحايا يصابون.. يحترقون.. الأيدى التى تبنى وتضع التفاعل قد تصاب بالجروح والحروق.. ونحن أيضًا لسنا معصومين من الخطأ.. لنقبل الوضع كما هو، وليفعل الله ما يشاء..

وجففت منال دموعها، ثم رفعت رأسها فى تحدٍّ وقالت:

- قبضوا على المعلم حامد.. إنه شىء مؤسف حقًا.. لكنه

تاجر مخدرات، والجميع يعرفون ذلك فلا ذنب لى إذن، وقبضوا على الحاج على. . أمر محزن جدًا. . لكنه يخون، ويسرق أموال الجمعية التعاونية، ويثير القلق والاضطرابات برغم أنه شيخ بلد. . والناس لا يخفى عليهم تصرفاته. . فما ذنبى إذن؟

وأشعل الطبيب سيجارته، ثم قال:

- من الأوفق أن تعتكفى فى حجرتك فى هذه الأوقات العصيبة، وسننتظر ما يحدث من أحداث. .

وهمت أن تجيب غير أن الكلمات توقفت لدى شفتيها، حينما رأت عربة سوداء تقف لدى باب المستشفى، وأحد الخفراء ينزل منها مهرولاً، ويفسح الطريق، ويذود الأطفال بعيدًا، ووقفت منال، ووقف الطبيب، بينما تقدم نحوهم رجال ثلاثة. . لجنة تحقيق، تابعة للمنطقة الطبية، ليحققوا مع الطبيب فيما وجه إليه من اتهامات. .

●●●

وفى صلاة الجمعة، ومن فوق منبر المسجد الكبير، كان الشيخ المداح يقف على المنصة، ممسكًا بيده سيفًا خشبيًا، وهو يصرخ فى المصلين بصوت ناقم ثائر: - «أيها الناس. . لقد دخلت قريتنا أرواح شريرة. . ونزلت بها الشياطين فسرت

العدوى إليكم، وتركتم طريق الملة السمحاء، وسلكتم مسلك الآثمين والأشقياء، فبدل الله أمنكم خوفًا، وغناكم فقرًا، ورضاكم سخطًا، وأنزل عليكم البلاء من فوقكم ومن بينكم ومن تحت أرجلكم، فتلف الزرع، وجف الضرع، وشبت الحرائق، وطمست الحقائق، وفتحت السجون أبوابها للمعتدين، وحاق الضياع بالمذنبين، وتصارع الرجال من أجل امرأة متبرجة، وطوتهم رغبات الجسد الساذجة.. فطوبى للأتقياء.. طوبى للأصفياء.. أيها الناس اتقوا الله فقد كفى ما كان.. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان.. اتقوا الله فحالنا لا يرضى به إنسان..».

والناس من حوله يمصمصون بشفاههم ويحركون رءوسهم فى حسرة، وقشعريرة الخوف من الله تسرى فى أجساهم والشيخ يتمتم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

●●●

[١٣]

وساد القرية هدوء عاصف، يوحى بالمطر والزوابع فى عز الربيع، والنار تتقد تحت التراب، وعلم الجميع أن الأرواح الشريرة التى تحدث عنها الشيخ المداح لم تكن سوى منال . . ومن معها من موظفين جدد، حملوا إلى القرية استهتارهم وتبجحهم، وأفسدوا الحاج على والمعلم حامد وغيرهما .

وابتسم الباشكاتب عبد المعطى فى مرارة وأخذ يردد: «أرواح شريرة» منال هى الروح الشريرة أليس هذا عجيبًا؟؟ سامحك الله أيها الصوفى الجليل . . وجلس عبد المعطى فى حجرته الشحيحة الضوء يتألم ويتأوه، لقد انتكست حالته، وساءت صحته لدرجة تنذر بالخطر، وبطنه أخذ ينتفخ أكثر وأكثر . . إنها علامات الاستسقاء اللعين، وساقاه أيضًا تورمتا، وبين نوبات الألم الحادة تتراءى له صورة منال التعسة . . الجميلة . . المظلومة، التى ألصقوا بها كل إثم ونسبوا إليها كل كارثة . . حتى الدودة التى أكلت القطن . . كانت

بسببها . . لقد غضب الله عليهم بسببها . . فعاقبهم هذا العقاب الأليم، وتمتم عبد المعطى: «لكنها ليست روحًا شريرة . . إنها ملاك طاهر غير أنها تعيش وسط الشياطين والذئاب . . وتلك الروح الشفافة . . والفم الرائق الحلو والعينان الفاتنتان . . والحديث العذب والكفاح من أجل إخوتها وأسرتها . . وسهرها من أجل المرضى والمتعبين . . كل هذه الأشياء لا تدل على أنها شيطانة . . يجب أن يفهم الجميع أنها لا تقل طهارة عن الآخرين . . لكن كيف؟؟ هذه هى المشكلة . .

لقد حاول عبد المعطى جاهدًا أن ينفى عنها التهم الموجهة إليها، ويثنى على أخلاقها وسلوكها، ويبرز كل حسناتها . . لكنه كان فردًا فى مواجهة قرية بأسرها، لا يستطيع أن يقنع تلك العقول الجامدة الشرسة التى فقدت قطنها وأملها، وفقدت أيضًا السلام الذى كان ينتشر رواقه على ربوع القرية كلها . . كان السؤال الذى يوقفه دائمًا عند حده: «ما سبب الخلاف بين المعلم والحاج على؟؟ ومن الذى أوجد قلبيهما، وقذف بهما إلى السجن رهن التحقيق؟»، فإذا قال لهما: «ليست منال هى السبب . . إنهما يتناحران من أجل الفوز بها، وهى ترفض هذا وذاك» فلا يعدم أن يرد عليه رجل يقول: هذه اللعوب الفاجرة هى التى أرثت الحقد بينهما، وأشعلت نار المنافسة بدهائها وخبثها.

وذهب عبد المعطى لزيارة الطبيب بعد أن اشتدت آلامه، ولم يعد يستطيع النوم. . ودلف إلى المستشفى فرأى الوجوم ينتشر فى أفقها والطبيب يزاول عمله فى صمت مكتئب، ومنال تمشى مطرقة لا تنظر فى وجه أحد، ولا تكلم أى إنسان، وتؤدى ما يوكل إليها، وكأنها منعزلة تمام الانعزال عن الجو الذى حولها، فقدت الحماس والرغبة فى أثناء تلك العاصفة المقبضة، إنها تؤدى واجبًا مفروضًا عليها فقط، وهالة زرقاء تحيط بعينها، وشحوب ظاهر يلقى خمارًا على وجهها الفاتن. .

- صباح الخير يا ست منال.

قالها عبد المعطى وهو يسرع وراءها وقد لهثت أنفاسه، وازداد وجهه شحوبًا، فأجابت دون أن تتوقف أو تكلف نفسها مؤونة النظر إليه:

- صباح النور. .

فلم يكف عن مطاردتها، بل حمل نفسه فوق ما تطيق، وأردف:

- أنا تعبان جدًا يا ست منال. .

فسكتت ولم تجب، وواصلت سيرها، وكانت تنقل خطواتها فى قسوة، وتلطم الأرض بحذائها حانقة مغتاظة، فقال عبد المعطى مرة أخرى:

- ألا تسمعينني ؟؟ أكاد أموت من شدة الألم . .

فقالت هذه المرة في صبر نافذ :

- اذهب للدكتور . .

وكان قد فقد طاقته كلها ، فارتمى على جانب الطريق متعبًا يلهث وقلبه كحمامة طائرة ، يرفرف بسرعة وضعف . . وكأنه يغالب الموت الذي يطارده ، وعيناه الغائرتان تتبعانها في حزن . . حتى في أساها تبدو كأغنية العاشق الملتاعة . . كالهمسة الحلوة : «وأنا أكاد أموت يا منال . . من أجلك أتعذب . . لا يهمني النار التي في أحشائي تهيج مغصي ، بقدر ما يهمني رضاك . . أنا الذي تسببت في كل هذا . . لولا شكواي ضد الحاج وضد المعلم لما اشتعلت النيران ، وذهب الناس إلى السجن ، وبكى أطفال ونساء ، ووقفت الحركة في القرية ، أنت بريئة يا مسكينة . . وأنا أردت أن أريحك منهما . . لكني . . ماذا أقول؟ هل أسأت التصرف؟؟ كلهم لصوص يا منال . . الحاج والمعلم . . والطبيب أيضًا ، يجب أن ينالوا عقابهم ، والقرية كلها تعرف ذلك ، وإن كانوا لم يجرءوا على الشهادة ضد أحد . . ليسوا جبناء ولا كذابين لكنهم يجاملون فى حماقة . . يجاملون حتى الذئاب والشياطين . . . ما كنت أظن أن العبء كله سوف يقع فوق رأسك الجميل

كله . . دفعة واحدة، وأنا أحبك يا منال . . أحبك بكل روحي وكياني . . ولن أكون وفيًا مخلصًا إلا إذا نقلت العبء فوق رأسي أنا . . إلا إذا أعلنت الحقيقة الناصعة وهي أنني صاحب الشكاوي كلها . . فلأعمل في وضح النهار، وأترك تدبير الظلام، ولأتقبل الأذى . . و . . والموت لو جاء -بصدر رحب، امرأة -كمنال- تواجه العاصفة التي أثرتها أنا، وأبقى خائفًا منكمشًا؟؟ يا للعار!!

وبينما كان عبد المعطي يرقد على جانب الطريق يناجي نفسه، سمع صوت الطبيب:

- لماذا ترقد هكذا؟؟

- الحال ساءت يا دكتور . .

- أعرف . . القرية كلها أعلنت الحرب.

- لا أقصد ذلك . . لقد ساءت بالنسبة لي . .

- كلنا في وضع تعس . . هيا . . قم لأعيد فحصك، إنك تبدو متعبًا بصورة لا تسر.

لم يجزع عبد المعطي كثيرًا حينما علم أن كبده في حالة غير مُرضية، وأنه قد أوشك على أن يتوقف عن إفرازاته تمامًا، وعلامات التسمم قد أصبحت جلية في نتائج التحاليل التى أجراها الطبيب، بالكشف الظاهري عليه، وتمتم عبد المعطي:

- سمعت يا دكتور أن الطحال إذا تلف يستأصلونه بعملية جراحية.

فقال الطبيب في يأس:

- لكن ليس هناك شيء اسمه استئصال الكبد.

- معنى ذلك أنني سأموت..

فالتفت إليه الطبيب في اهتمام، وقال:

- من قال ذلك؟؟

- هذا ما فهمته من كلامك.

- لا أعني ذلك بالضبط.. لكن الكبد قد يستأنف نشاطه وتتجدد خلاياه فى أى وقت، نحن بدورنا قد أعددنا لك الدواء اللازم والرعاية الطبية الكافية.

كانت حالته في مرحلة خطرة، لكنه لم يكن يفكر جديًا في الموت، وإن كان قد تردد على لسانه، كان واثقًا أنه سيعيش، الموت والحياة بيد الله، سواء توقف الكبد، أو لم يتوقف، وروحه لم تزل منتعشة وتتشوق إلى الحياة والحب والأمل، ومنال لم تزل بالقرب منه، تعد له الدواء وتحقنه بالعقاقير المقوية، وتزوده بنظراتها الحزينة، وبلمساتها التي تحمل الدم بتجدد ويجري في عروقه، فينسى آلامه ومصيره التعس، وأمسك بيدها في ساعة متأخرة من الليل، وقال:

- منال . . فنظرت إليه دون أن ترد بينما استطرد :

- أنت فتاة طاهرة .

- الشياطين لا تعرف الطهر ، والأرواح الشريرة وباء . . ألم يقل أهل قريتكم ذلك . .

- أنا واحد منهم يا منال . . ولا أقول هذا .

- لأنك متعب . . مريض .

- منال . .

- ماذا تريد . . . اختصر . . .

- لا تكوني قاسية هكذا . . لقد وجدت الحل الذي يرد إليك اعتبارك ، ويرغم الجميع على الانحناء لك احترامًا . . . إنك مظلومة . . . وأنا السبب . .

ظنت منال أنه قد بدأ يهذي ، فمرضى الكبد في مراحل حياتهم الأخيرة غالبًا ما يتكلمون كالمجانين ويتصرفون تصرفات نابية ، لكنها مع ذلك وجدت في عينيه صدقًا وعلى وجهه علامات الجد . . تعابير وجهه لم يزل يحتفظ صاحبه بكل قواه ، ويعي ما يقول ، ولذا قالت :

- أنت؟ . . كيف؟؟

- أردت أن أحطم أعداءك بطريقتي الخاصة . .

- ماذا تقصد؟ . .

- أشعلت النار . . وذهبت بهم إلى السجن . . وأقمت الدنيا وأقعدتها . .

- إنك متعب . .

فتحامل عبد المعطى على ساعديه الهزيلين، واضطجع نصف اضطجاعة ، وقال فى نبرة جادة :

- خطبك الحاج . . فشكوته إلى الإدارة، وفتشت عن مخالفاته . . وقذفت به إلى السجن . . وأحبك المعلم، وحاول الزواج منك، فشكوته إلى مباحث المخدرات كى أريحك منه وأريح البلد من سمومه، ثم . . ثم الطبيب، ألم يحاول أن يكون ذئبًا معك ذات مرة؟ هو الآخر شكوته إلى المنطقة الطبية . .

وذهلت منال وهى تستمع إلى كلماته، ونظرت إليه فى استغراب واهتمام، فقال :

- ألا ترين أنى الأقوى، وإن كنت أكاد أموت على فراش المرض؟ لقد تصرفت بطريقتى الخاصة . . لا سلاح لى غير أقلامى وأوراقى، هكذا ترين أنهم ذهبوا جميعًا . . وبقيت أنا . . ذهبوا رغم عصبيتهم ومالهم وقوتهم . . ألا ترين أننى أحمل قنبلة . . قنبلة ذرية من نوع مضحك؟ لكن هذه الحقائق

لن تعيش بعد هذه اللحظة في الظلام . . سوف أنشرها غداً على الناس . . فلأضع السطر الأخير من المأساة في الضوء . . ولأكتبه بشجاعة وعلى ملأ من الناس، لأبرئ ساحتك . . ولتعلمي أن قوتي ليست مجردة من الأخلاقيات . . بقوة رجل شجاع يمسك بالقلم والورق . .

أي رجل عجيب ذلك الذي يرقد أمامها فوق سرير المرض!! هذا كل الهيكل الناحل الشاحب ذو العين الواحدة والأنفاس اللاهثة واليد المرتعشة المعروفة، يبدو كأنه لغز كبير . . سر غامض تافه، وخطير في الوقت نفسه، أليس عجيبًا أن يثير هذه العاصفة كلها، ويملأ القرية ضجيجًا وعلامات استفهام ويشحنها بالخسائر والقلق والبغضاء؟؟

- أنت خصم عنيد . .

- وأشد مني عنادًا يا منال هو ذاك الداء الذي أقعدني، وهدَّ قواي . . هذا العدو الراقد في أحشائي لم تنفع معه أوراقي وأقلامي كان الداء أقوى مني . . بل أقوى منا جميعًا، قد أبدو بالنسبة لك لغزًا كبيرًا . . لكنك ستفهمين كل الطلاسم والرموز . . وأبدو أمامك إنسانًا بسيطًا ضائعًا . . لو نظرت إليَّ نظرة منصفة . . لو تحسست هذا القلب الذي ينطوي على حب كبير . . لك أنت . . إني مريض محتضر . . لكن قلبي

جبار . . هل تموت القلوب أيضًا يا منال؟؟ ولم لا . . إنها من لحم ودم . . آه كم أحس بالتعب .

ولم تدرِ منال بماذا تجيب ، كانت فى دوامة ثائرة عاصفة ، فتمتمت وهى تخرج :

- تصبح على خير . .

- وأنت من أهله . . آه . .

وعلى فراش المرضى سمع عبد المعطى أنباء هزته هزًا عنيفًا ، المعلم حامد يفرج بضمان مالى ، والحاج على يخرج أيضًا ويعود إلى القرية لكنه موقوف عن العمل بمشيخة البلد لفترة قد تطول وقد تقصر ، والطبيب خصم منه خمسة عشر يومًا ، وينقل إلى مستشفى العياط قرب الجيزة ، ومنال تنقل إلى مستشفى أم المصريين بالجيزة . . قريبًا منه . . لكن رائحة السلام لم ينتشر أريجها بعد فى أفق القرية . . فالشكوك قائمة ، والعداوات لم تزل تتقد فى النفوس . . غير أن المعلم حامد قد أقسم على المصحف الشريف أنه لن يعود لتجارة المخدرات . . إن أيامًا قصيرة فى السجن . . قد علمته أن مال الدنيا كلها لا يساوى سواد ليلة فى السجن أو الذل الذى ركبه ، وبعده عن أولاده شئ رهيب . . والمقهى والناس والضجيج والقرية كلها أشياء لو تركها لكان الموت أروح له . .

وبقى على عبد المعطى أن يقول كلمته على ملأ من الناس، لتهدأ النفوس وتعود المياه إلى مجاريها ويفوح عبير السلام . . وقد قالها عبد المعطى . .

وأثارت من الضجة أكثر مما أثارته الأحداث الرهيبة نفسها . . وتمتم عبد المعطى : «تستطيعون أن تمزقونى . . افعلوا ما شئتم، هذا هو الذى حدث . . ».

وتشنجت أصابع المعلم، وانطلق الشرر من عينى الحاج على، وأصر الطبيب على أسنانه من الغيظ، لكن عبد المعطى يرقد شاحبًا كئيبًا، هيكلاً فارغًا من الأمل والحياة . . لا ينظر إليهم، عيناه تتركزان فى وجه منال التى تقف بينهما والدوامة العاصفة لم تزل تشتت ذهنها المتعب المكدود الذى لم يصح بعد من أثر الصدمة، ومن آن لآخر يهمس فى صوت حزين غير مسموع تمامًا :

- أحقًا ستسافرين إلى الأبد يا منال . . ولا نراك . . ؟

وكلما فكر أن منال سوف تسافر ولن تعود، وتغيب عنه صورتها المحببة، وعبيرها الذى يثير شوقه وحنينه، يهمس :

- لكأنى أرى مأتمى وأشيع جنازتى قبل أن أموت . .

●●●

[١٤]

ابتسم عبد المعطى ابتسامه شاحبة وهو يرقد فى حجرته المختصرة الضوء بعد أن انتقل إلى منزله حين ساءت صحته، وكان رغم ألمه وحزنه يشعر بشيء من الارتياح إذ إنه سمع أن أولى الأمر قد اهتموا بشكواه التى تتعلق بآفة القطن، ورصدوا التعويضات اللازمة للفلاحين، وبذلوا مجهودات كبرى للمحافظة على ما بقى من المناطق التى لم يقطع زرعها، ووجد من الفلاحين من يقول فى إخلاص: «شفاك الله يا عبد المعطى دائمًا عون لنا في الأزمات. .».

ودخلت أمه ووجدت الابتسامة الشاحبة ترتعش فوق ثغرة الجاف، فقالت:

- لعلك أحسن حالاً يا ولدى. .

- الحمد لله. .

- هاك أرنبًا لذيذًا. . لقد أجدت لك طهيه. .

فالتفت إليها عبد المعطى، وأجال النظر بين الأطباق العامرة، والقُلة الممتلئة بالماء البارد ثم قال فى حسرة:

- فقدت كل رغبة فى الطعام.. أريد ماء فقط..

- لكنك لم تذق شيئًا سوى الماء من يومين..

- أمر الله يا أمى.. ثم لا تنسى أن الطبيب قد حرم علىّ مثل هذا الطعام..

فأرخت الأم أهدابها، واختلجت دمعة فى عينيها ثم قالت:

- الطبيب ربنا يا ولدى.. إنك تحرم نفسك من كل شىء، ومع ذلك فحالتك لا تسر.. كل هذا الأرنب.. وستشعر أن حالتك أحسن.. كل من أجلى يا ولدى..

- لا فائدة..

ثم ترنم فى صوت جريح متقطع حزين النبرات:

من فوق شواشى باسمع ندا بالليل

عشق البنات البكارى هد منى الحيل

فاغتصبت أمة ابتسامة لا تقل شحوبًا عن ابتسامته، وقالت:

- قل يا صحة.. الصحة أهم شىء يا ولدى.. وعندما

تشفى إن شاء الله سوف أزوجك بنت أسياد البلد . . نذر عليَّ والنذر أمانة .

فضحك عبد المعطى ضحكة قصيرة، وقال :

- زواج؟؟ إنك حسنة النية لدرجة كبيرة يا أمى . . لم يبق إلا القليل وتنتهى الرحلة الشاقة التعسة، لا شفاء يا أمى . . كل ما أرجوه من الله هو حسن الختام . . سأموت حتمًا . . هذا ما أشعر به، وسيقول بعض الناس عنى : كان الباشكاتب عبد المعطى متعبًا مثيرًا للمشاكل فليرحمه الله . . وسيقول غيرهم . . مسكين كان طيبًا . . ومنال لست أدرى ماذا ستقول . . إنها غير الناس جميعًا . .

ثم ترنم عبد المعطى من جديد بنبراته الحزينة الجريحة .

فى باطنى جرح ستاشر هلال ما طاب

وكل ما طببه تتفرتك الأطباب

جابو حكيمى على بغلة عشارية ورد الباب

كشف الحكيم وتمنع بعيد عنى

قال عيطوا يا رفاقه.. دا قليل إن طاب

فلم تستطع أمه أن تمنع نفسها من البكاء والإجهاش بصوت عال، ثم تحول بكاؤها إلى أنين بلغ مسامع كل من بالبيت، فتزاحموا نحو باب الحجرة فى خوف وذعر، وعبد المعطى

راقد بينهم هيكلاً محطمًا وعصاه الأنيقة إلى جواره، وجلبابه الصوفى معلق على الحائط، والعيون الخائفة تحاصره من كل جانب، وأبوه يزم شفتيه يمنع عواطفه من أن تنطلق فى بكاء حار، وتمتم عبد المعطى:

- إنى أختنق. قليلاً من الهواء..

العرق البارد يغمر جبهته، وصدره يعلو ويهبط، وعيناه تدوران فى محجريهما كمن يوشك أن يفقد وعيه، ثم يغمضهما للحظات لا يدرى أطالت أم قصرت، وسرعان ما يفتحهما ويجول بهما بين عائديه، وفى رأسه تطن تلك العبارة المبكية التى ترنم بها من دقائق.. «عيطوا يا رفاقه، دا قليل إن طاب»، لكنه لا يريد أن يرى سوى دموعها هى.. منال.. لكن هل تبكى حقيقة من أجله ولِمَ تبكى؟ كثيرون يموتون أمامها فى المستشفى ومن قبل فى القَصر العينى، ولو بكت على كل راحل، لكانت أيامها كلها بكاء وعويلاً وندبًا.. لا.. لا.. مهمتها أن تصارع الداء، وتقف فى صف المريض لينتصر على الموت.. ومهمة غيرها البكاء إذا ما حل القضاء، وخرج النفس الأخير.. لو بكى القواد والجنود على كل شهيد فى أرض المعركة لتوقف كل شىء.. إنه جنون لكن.. لكنى إنسان آخر غير الذين ماتوا بين ذراعيها.. أجل.. ليتها تعرف ذلك..

○○○

وفى المستشفى كانت منال تجلس مع الطبيب، والحجرة قد خلت تمامًا من طالبى الفحص الطبى، وسكون يشمل المكان، ومقهى المعلم حامد المليجى كالعهد به عامر بالرواد، وقطع الطاولة وكركرة الجوزة وصوت النادل وقهقهات الزبائن كلها تصل كالطنين الخافت إلى سمع منال والطبيب، وتمتم الطبيب فى شىء من عدم الرضى:

- هل أعددت كل شىء..؟

فقالت منال باقتضاب:

- أجل..

- سنرحل غدًا.

- مفهوم..

وتذكرت منال أول يوم قدمت فيه إلى شرشابة، والسيارة وسائقها والحديث الذى دار بينهما عن القرية، والأطفال الذين يقطعون الطريق أمام العربة، والخفير الذى يرفع يده بالتحية والعيون التى رمقتها بإعجاب ممزوج بالاحترام، والتعليقات التى كانت تلاحقها، والمقهى.. والمعلم حامد.. آه.. ما أشد ما كانت تخاف نظراته التى تصرخ فيها الشهوة وينبثق منها الوعيد والتهديد.. والحاج على ذلك الرجل الصامت الثابت لا يتحرك كالجبل الشامخ.. يرمقها من بعيد.. ويشتهيها بكل

كيانه . . لكنه ذو كبرياء . . ويخطط فى ذهنه أشياء وتصرفاته عجيبة . . أخوه حكمدار . . ثم الباشكاتب عبد المعطى . . يا له من مسكين، كان عندما دخلت القرية أهم إنسان فى شرشابة على حد تعبير الدكتور، رجل أصفر البشرة يشرع قلمه فى وجه مخالفيه والذين يحكم عليهم بالمروق والطغيان . . وتذكرته وهو يعترف لها بحبه . . ثالثة الأثافى . . ثم العاصفة الكبرى التى أشعل نارها، فأقام الدنيا وأقعدها هيه . . لم يكذب حينما قال أنه أقوى الجميع فى القرية وأن قلبه ذهبى . . إن حبه لى كبير . . فوق التصور . . فوق المنفعة . . يا لها من ليال عجيبة تلك التى قضتها فى هذه القرية المثيرة . . كانت كحلم طويل ملىء بالمفاجآت والمفارقات . .

وقال الطبيب قاطعًا عليها أحلامها :

- لا شك أنك سعيدة بانتقالك قرب الأسرة . .

فتنهدت منال، وقالت :

- فقدت الحماس بالنسبة لكل شيء . . لم أعد أعرف سوى أن أعمل . . أعمل فقط . .

- ليس ما تقولينه حقًا . . لا شك أنك ستستريحين، فسوف تودعين المتاعب هنا، وتعيشين إلى جوار أمك هناك . .

- هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر . . لكنى أحس فى أعماقى بألم . . بقلق غامض لا يمحوه مجرد الانتقال ألست معى فى أن المتاعب سوف تبقى ملازمة للإنسان كظله؟ إنها شيء من وجوده . . من طبيعة علاقته مع أفراد مجتمعه . .

فانطلق الطبيب يقول :

- إنها تعبير عن الصراع . . عن التفاعل . . هذا هو الحق . . لكنى أفهم معنى القلق الغامض الذى تشيرين إليه . .

- ماذا تعنى؟؟

- أعنى أن قلقك الغامض هذا ليس غامضًا بالنسبة لى على الأقل .

- لست أدرى ما تهدف إليه . .

- أستطيع أن أقول أن مشكلتك الكبرى الآن هى مشكلة الزواج . .

فقالت منفعلة :

- ليس هذا صحيحًا . .

- كلا يا عزيزتى . .

- لقد جانبك الصواب فيما تقول ، أكنت تظن أن أمثال المعلم والباشكاتب قد سيطروا تمامًا على مجرى تفكيرى؟ . .

من الصعب أن يصدق الإنسان أنى أستطيع الزواج من أحدهم . . ليست هذه التربة الصالحة لى . . إننى أختنق فى مثل هذه البيئة . . أنا لا أنفر من الفلاحين أو أحتقرهم لكن زواجى من أحدهم مخالف لطبائع الأشياء . .

فابتسم الطبيب فى مكر، وقال :

- دعينا من كل ذلك . . إن مشكلتك هى الزواج . . لقد كان هؤلاء الثلاثة هم ناقوس الخطر الذى أيقظك على الحقيقة المرة . . أنت تجربة جديدة . . لقد تعود مجتمعنا أن يحمل الرجل العبء . . لكنك اليوم تحملين عبء إخوتك وأمك كما يفعل الرجل . . أنت خليفة أبيك . . لكن إلى متى تبقين هكذا؟ إن أمام إخوتك سنوات طويلة حتى يصيروا رجالاً يعتمد عليهم . . فهل تظل تضحيتك مستمرة حتى يفوتك القطار؟؟ إن الزواج مع هذه الأوضاع أمر بعيد التحقيق بالنسبة لرأيى على الأقل . . هه . . . ماذا قلت؟؟

فقالت منال بعصبية :

- يجب ألا أفكر فى ذلك الآن . .

- لكنك تفكرين رغمك أنفك . . إنك تهربين فى ظاهر الأمر لكن عقلك الباطن يتحرك . . يناقش الأمر فى وقاحة دون أن تشعرى، ثم تتحدثين بعد ذلك عن القلق الغامض . . والألم الذى يحز فى نفسك . .

وهزت كلماته أوتار نفسها، وأيقظت في داخلها أشياء كانت على وشك أن تنام، لقد فكرت في الأمر قبل ذلك، وأيقنت أن الإنسان لا يحيا لنفسه فقط، عليه ضريبة يجب أن يؤديها، تضحية لا بد منها، أمها وإخوتها جزء منها، وليس المعقول أن تترك إخوتها ليعيشوا في الملاجئ، ولا أمها كي تسعى بين البيوت- في هذه السن- لتغسل الملابس، أو تستجدى الهيئات الاجتماعية، وتذكرت الحاج علي وهو يعرض على أمها أمواله واستعداده التام للتكفل بالأسرة كلها . . هل كان صادقًا فيما قال؟؟ إن الأمر جد عويص ولا أخرج منه إلا بمعجزة . .

وقال الطبيب :

- لطالما سألت نفسي هل يستطيع الإنسان أن يحمل عبء التضحية إلى الأبد وينسى ذاته تمامًا . .

- ولِمَ لا يا دكتور؟

- لأنه فوق الطاقة . . إنه طريق شائك . . نهايته التمرد . . نكسة خطيرة يصاب بها عندما يتلفت وينظر خلفه فيرى عمراً طويلاً قد انصرم، وينظر أمامه فيرى المستقبل لا يختلف كثيراً عن الماضي . . وهنا يتمرد، ويسيطر عليه الملل . .

- والحل في رأيك؟؟

- الحل . . الحل هو أن . . أن تتزوجينى أنا .

وصرخت منال فى دهشة :

- أنت الآخر ؟؟ .

فابتسم قائلاً :

- أجل . . أعترف أن فيك شيئًا ما . . يجعلك قريبة إلى نفسى كما كنت قريبة إلى نفوس الآخرين .

فأخذت منال الأمر على أنه مجرد دعابة ، وقالت :

- لكن المشكلة الأساسية لن تحل أيضًا . .

- أعترف بذلك ، لكن لنتزوج أولاً . . ثم نبحث عن حل . .

- هذا جنون . .

- لا أعتقد . . عندما نغرق فى المشكلة ، ونكتوى بنارها إما أن نجد مخرجًا . .

- وإذا قتلتنا . .

- نتنصر عليها بالحب . . أنا من عشاق المغامرات . .

ونظرت منال إلى الطبيب فى دهشة ، النظارة الزجاجية ذات الأحجار البيضاء تبدو فوق عينيه صافية ، تشف عن أهدابه وعن الإشعاعات المشرقة التى تنبثق من هناك ، ووجهه

الممتلئ الحليق يوحى بالبساطة والسذاجة والسخرية والأمل، إنه صنف من الرجال كل ما نظرت إليه تحس أنه يمضى ولا يبالى.. يفعل ما يحلو له دون أن يفكر كثيراً فى العواقب..

- وغداً نسافر يا عزيزتى.. ويأتى هنا غيرنا.. حكيمة جديدة.. وطبيب جديد.. ويبقى المستشفى كما هو.. ومقهى المعلم حامد لن يتزحزح.. وتبدأ القصة من جديد.. من حيث انتهينا نحن.. الحياة لا تقف، والمشاكل لا تموت أبداً.. قد تكون الحكيمة الجديدة قبيحة الشكل، وقد يكون الطبيب الجديد أكثر مثالية منى.. لكن ليس معنى ذلك أن تمضى الحياة فى هذه القرية هادئة.. كالريح الرخية.. فالتفاعل لم يزل مستمراً.. والرذاذ يتطاير، والأبخرة السامة وغير السامة تغمر الأفق، والقروح تصيب الأيدى التى تصنع التفاعل.. وسنكون نحن آنذاك في الجيزة.. نصنع تفاعلاً من نوع جديد.. وننجب أطفالاً.. ينضمون إلى رهط إخوتك الصغار.. وهكذا تنمو الكتيبة الصغيرة.. والقافلة تسير.. والتفاعل الصاخب يستمر..

وضحكت منال.. ضحكت فى إشراق وسعادة هذه المرة... وحينما شعرت بساعد الطبيب يلتف حول خصرها النحيل، سرى تيار مرعش فى جسدها فملأه بالخدر اللذيذ، فتمنعت قليلاً، وقالت:

- لكن . .

فقال وهو يهوى على وجهها بأنفاسه اللاهثة . .

- لكن ماذا؟ الرجال لا يستطيعون الصبر طويلاً . . إن التفاعل الذى نتحدث عنه يحتاج إلى أيد ناعمة طرية تمسح على القروح، وتداوى الأيدى القوية الجريحة التى تصنعه . . أليس كذلك يا حبيبتى؟

وسكتت منال فى رضى، وآثرت ألا تقاوم . . فقد كانت العاصفة هذه المرة أعنف من أن تقف فى طريقها . . والجو من حولها مشحون بأنغام عذبة شجية . . فاستسلمت لعالمها الرائع المسحور ولم تكن تفكر آنذاك إلا فى تلك اللحظات الحلوة . . السعيدة . .

●●●

[١٥]

منذ الصباح الباكر، ومنال تستعد للرحيل، وتملأ حقائبها، وتودع المستشفى والمرضى وموظفى الوحدة المجمعة . . موظف المعمل والإخصائى الاجتماعى، والمدرسين، وأماكن الذكريات الحلوة والقاسية على السواء كانت فى حالة نفسية طيبة، راضية تمام الرضى عن الاتفاق الأخير الذى تم بينها وبين الطبيب، ذلك الاتفاق الذى بقى طى الكتمان ولم يعلم به أحد من أهالى قرية شرشابة، وأكملت على الفور زينتها، ولحقت بالطبيب فى الكشك، كان هو الآخر فى قمة انبساطه وانشراحه، يستقبل المرحلة الجديدة من حياته باطمئنان وثقة.

وجاءت العربة التى سوف تقلهما، وسرى النبأ إلى القرية، فوفد خلق كثير لتوديع الراحلين، كانت عواطفهم الريفية الصادقة تتدفق فى عيونهم وفى كلماتهم «لن ننسى أيامكم الحلوة . . ربنا معاك يا دكتور . . ربنا يعد لها لك يا ست منال

ويرزقك المراتب العالية المسامح كريم . . ربما نكون قد تسببنا لكما فى بعض المتاعب . . لكن كله خير . . » .

وكانت هذه الكلمات البسيطة المعبرة تمسح الكثير من آلامها ، وتدفن إلى الأبد تلك الأحقاد الصغيرة ، وتعفى على آثار المشاكل كل التى خلقتها الظروف خلقًا ، وبين ضوضاء الوداع والدعوات الحارة والتحسر على الفراق ، صافح الطبيب ومنال عشرات الأيدى الخشنة فى حرارة وانفعال ، وتمتمت منال وهى تغالب انفعالها :

- برغم ما حدث . . فأنتم ناس كرماء . . طيبون . .

وانطلق صوت مريض ، عبر نافذة الدور الأعلى فى عنبر المرضى مع السلامة . . مع السلامة يا دكتور . . مع السلامة يا ست منال . .

وساد المودعين صمت تام ، وحملقت الأعين إلى أعلى نحو الصوت الخشن الممتلئ الذى يحاول التغلب على مظاهر الضعف والمرض ، ونظروا إلى اليد الممتدة من خلال القضبان وكأنها قد تشنجت وهى تلوح بالوداع ، ومن خلفها قد تزاحمت وجوه كثيرة . . شاحبة ترسل نظرات المحبة والاعترافات بالجميل ، كان الرجل يتكلم عبر النافذة العليا وكأنه يصرخ من فوق منبر عالٍ فى حفلة تكريم غير متوقعة . .

وسمع نفير الغربة . . وهمّ الراحلان بالانصراف ، لكن معاون صحة القرية شق الطريق وسط المتزاحمين وهو يلهث من شدة التعب ، ويقول :

– الحمد لله . . لقد لحقت بك يا دكتور قبل أن ترحل . . كرامة الميت دفنه . . البقية في حياتك . . مات الباشكاتب عبد المعطى ونريد شهادة وفاة . .

لا حول ولا قوة إلا بالله . . كانت هى عبارة الخالدة التى تمتمت بها شفاه الحاضرين وقد ران عليهم جلال الموت ، وشملتهم رهبته ، وبينما كان الطبيب يتجه إلى مكتبه لعمل اللازم ، والناس يتحدثون عن عبد المعطى وماضيه الطبيب . . الملىء بالكفاح . . وخدمة الناس ويثنون على أخلاقه وصبره ، وجهاده من أجل بناء المستشفى ، والوقوف فى وجه ظلم العمدة والمشايخ وأصحاب الجاه . . بينما كان كل ذلك يدور كانت منال تذوق دموعها حارة متدفقة لا تستطيع لها حبسًا . . والمنديل الأبيض فى يدها قد تبلل تمامًا ، وصورة رجل شاحب . . حزين ينظر إليها فى حب وحنان وتضحية تتراءى لها فى خاليها . . صورة رجل مريض مسكين . . أحبها كما لم يحبها أحد من قبل . . وفعل الكثير من أجلها . .

وتمتم الطبيب دون اكتراث :

– ما هذا يا منال؟ إنك تبكين فى حرارة . .

فقالت من بين دموعها وشهقاتها :

- هذا الضعيف الضائع الذى مات . . كم كان نبيلاً . . إنه نوع فريد من البشر تجد نفسك مرغمًا على حبه والاحتفاظ بذكراه . . صور كثيرة فى شرشابة سوف أنساها . . أما هذا الرجل فلن ينسى . . نموذج حى فى قلبى لا يموت أبدًا . .

فضحك الطبيب ضحكة مقتضبة ، وقال :

- بدأت أغار من المرحوم عبد المعطى . .

وبرغم الدموع فقد ابتسمت منال ابتسامة باهتة تنطق بالحزن العميق ، ثم أخذت تجفف دموعها كى تتخذ سمتها الهادئ الرزين ، والناس المتجمهرون فى الخارج يغمغمون :

- يا لها من إنسانة نبيلة طيبة . . خسارة كبرى . . الله يجازى أولاد الحرام . .

●●●

وارتفع نفير العربة متقطعًا قوى النبرات ، وكأنه صفارة إنذار ، وتحركت العربة بالطبيب ومنال فى بطء ، وعشرات الأيدى تلوح فى ذهول ، ومئات الكلمات تضيع فى خضم الوداع الصاخب ، وعيون مبتلة تحاصر العربة ، وتتزاحم نظراتها إلى حيث يجلس الطبيب ومنال ، وهرولوا خلف

العربة وهى تنطق ناحية جسر الترعة التى تمر أمام المستشفى، ولما حاذت العربة مقهى المعلم حامد المليجى نظرت منال . . كان الحاج على يقف كالتمثال الجامد المرصود وعيناه مصوبتان إلى العربة . . وكان المعلم حامد المليجى يقف هو الآخر يصر على أسنانه إلى جواره وقد انكسرت حدة القوة والشهوة فى عينيه . . نظرات ذليلة كئيبة . . وبحركة لا إرادية مدت منال رأسها ناحية اليمين وأخرجت ذراعها ملوحة لهما ولمن فى المقهى، وهى تقول بصوت مبحوح : «السلام عليكم خلناكم بعافية . . » . . كذلك فعل الطبيب . .

وتحرك التمثال الصامت . . الحاج على . . واندفع معه المعلم حامد ناحية العربة . . وصافحا الطبيب ومنال فى ود عميق . . وكأن لم يحدث شىء . . كانت قلوبهم تتعانق، وأطل من العيون بريق صاف نبيل بريق بدد ما شاب الذكريات من ظلام وآلام . .

– مع ألف سلامة . .

وانطلقت العربة بعد أن عبرت الجسر فى الطريق إلى القاهرة . . والمعلم والحاج قد عادا إلى مكانهما فى المقهى، وحاول كل منهما إن يمسح خفية دمعة سقطت على الرغم منهما . .

والأطفال الصغار يملئون الشارع بالضجيج ويسابقون العربة، والبط والأوز والماعز تتفرق فى ذعر كلما مرت بها العربة، والبيوت المتواضعة ينطلق منها الدخان، ويتحرك فيها نساء يلبسن الثياب السوداء الضافية.. وفى أطراف القرية بدت أشجار النخيل والمزارع الخضراء وهى بالقرية وكأنها شال أخضر جميل.. والعربة تسرع فى المسير ومذياع يترنم بأغنيات حلوة شجية.. لكن منال لا تكاد تعى منها شيئًا، والطبيب يبتسم فى سعادة وثقة، ويده تتسلل خلف خصرها مداعبة، وتبتسم منال هى الأخرى.

ومن خلف العربة ذيل طويل من الغبار المثار.

تمت

نجيب الكيلانى

●●●



جولة في «الربيع العاصف»

دراسة نقدية بقلم

محمد حسن عبد الله

ليست هذه الكلمة تقديمًا لقصة «الدكتور نجيب»، ولا تقريظًا له . . .

فالمقدمة مكانها صدر الكتاب، ومن أهم شرائطها أن يكون صاحبها أكثر شهرة، وتمكنًا فى الفن من مؤلف القصة . . وأنت تسلم معى أن ذلك كله غير متحقق والحمد لله .

كما أن هذه الكلمة ليست تقريظًا للقصة، ولا مدحًا للصديق الطبيب الأديب؛ لأنه فى غنى عن كل ذلك، وأنت - أيها القارئ- لا تخدع، كما أننا نثق فى ذكائك، ونسلم بأن المدح أو الذم لن يحولك عن رأى كونته فى هذا العمل .

وإذا كان النقد فى أسلم مفاهيمه عملية تفسير لأثر الفنان المبدع، وتوكيد لأواصر الصداقة بين القارئ والعمل الذى يقرؤه؛ فإنى لن أكون ناقدًا؛ ولكنى قارئ فحسب، يحاول أن يسيطر انطباعاته دون أن تستبعده فكرة سابقة، أو يدور فى محور من محاور المدارس أو المذاهب النقدية المتعارضة .

●●●

وعندما تلتقى بالصفحة الأخيرة من هذا الكتاب سيطالعك فيها ثبت بأسماء مؤلفات أديبنا- الذى هو موضوع تآمرى فى هذه الكلمات- وهى فى كثرتها، وتعدد ألوانها، وما نالت من

جوائز تدل على رسوخ القدم فى ميدانى البحث والإبداع، لا تدل على مدى تمكنه من فنه فحسب، بل تدل على أمرين آخرين أحسبهما فى غاية الأهمية، أولهما: أنه لا يعتمد فى ثقافته الأدبية على معرفة عامة سطحية، بل يكاد يدرس فنون الأدب دراسة منهجية عميقة، وثانيهما: أن هذه الدراسة ليست مهوشة ولا متضاربة؛ بل يجمعها تنظيم دقيق مصدره وعى هذا الفنان، ومثله العليا، وإيمانه بمعنى الكلمة الشريفة، وبقيمتها، وبجدوى الفكرة المثمرة وفاعليتها فى بناء مستقبل وطننا.

وربما.. على هذه الدعائم الثابتة فى ثقافته، وعلى مستواه الفنى الذى بلغه فى أعماله السابقة.. ستكون ركيزتنا فى مناقشة هذه القصة.

وهذا الميل إلى البحث والشغف بتسجيل الظواهر الجديدة، ثم الحب العميق للوطن، الذى يتجلى فى رسم قسماته، وتقديس طبعاته، والمشاركة الإيجابية فى تخطيط مستقبله.. هذه الملامح نجدها واضحة فى النظرة الكلية إلى الآثار الأدبية التى خطها قلم أديبنا، نجدها واضحة أيضًا فى هذه القصة التى فرغنا من قراءتها..

فحبه لوطنه الكبير تابع من حبه لقريته الصغيرة «شرشابة» التى أودعها ذكريات صباه، وهذا الحب يتجلى فى حرصه

على تقديمها إليك محدداً حتى لتكاد تتعرف عليها دون مرشد . . إنها تبعد عن طنطا بكذا من الكيلو مترات، وعن زفتى بكذا، وهى تجاور سنباط، وتواجه كفر حسين . . وصورة مكبرة لها .

ثم بعد أن تدخلها ستواجهك المنازل القميئة الهزيلة، والأطفال العراة ، وستحاصرك العيون الجائعة إلى رؤية أى شىء جديد .

وبعد أن تحاذى بك السيارة شاطئ الترعة، وتسحب ذيلاً طويلاً من الغبار، ستلتقى بقهوة المعلم حامد المليجى، وتلتقى فيها بآهات الاستحسان، وبنظرات مذهولة غائمة من تأثير المخدرات . . بل من تأثير الحياة المملة الراكدة فى القرية . . لكنك فى أعقاب ذلك ستلتقى بالمبنى الشاهق النظيف . . مبنى الوحدة المجمعة . . أو لمسة الحضارة للقرية الغافية فى متاهات النسيان من قرون .

وهنا نكون وصلنا إلى مسرح الأحداث .

●●●

«والربيع العاصف» تصوير لفترة من حياة هذه القرية، وقد أحسن المؤلف اختيار الزمن، وهو حين تمد المدينة يدها إلى القرية، ممثلة فى الوحدة المجمعة، وهى فترة ممتلئة بالصراع بين

قديم ألفته القرية فاكتسب صفة القانون الثابت الواجب، وبين جديد مسلح بعوامل البقاء، فتحرر من كل ما هو ردىء وجامد من الموروثات.

وقد اختار المؤلف طبيبًا وحكيمة فى الوحدة المجمعة، وبعض الريفيين ليصور لنا من خلالها هذا الصراع.

على أنه لم يترك لنا استنتاج مغزى القصة، إذا كان لا مفر من البحث عن مغزى، بل قاله صريحًا أكثر من مرة، على لسانه، أو جعله على ألسنة شخوصه.. وهو مغزى واضح فطن إليه الباشكاتب عبد المعطى نفسه حين قال: الناس ينتقلون فى قريتنا إلى عصر جديد.

ولعله من العجيب أن يكون المؤلف أقل توفيقًا من الباشكاتب عبد المعطى حين يريد أن يكشف لنا عما بين السطور. فعندما تمر السيارة التى تحمل «منال» أمام قهوة المعلم حامد، وتتلاقى العيون الجائعة على وجهها النضر، ينطلق مغنى الموال بصوته الشجى:

واالله إن صفا لى زمانى لأسكنك يا مصر

ويستجيب له الجالسون بالآهات، ويصرخ المعلم حامد وقد اكتشف على نور الجمال الجديد مدى ما يحيط به من رتابة وقتام، يصرخ قائلاً: منك لله يا أم العز يا مراتى.. يا شيخ الخفر!!

كم تمنيت أن يقف القلم هنا وألا ينخدع الكاتب بالسيل الجارف من الكلمات، وبالتدفق المسلسل للأحداث . . كم تمنيت أن يثق فى استنتاجنا وقدرتنا، أو أن يكون أكثر قسوة علينا فيتركنا فى حيرة نتساءل : ماذا يعنى؟

ولكنه يمسك بمبضع الطبيب، ويتخلى عن قسوة الأديب حين يزيل الغموض اللذيذ، ويمسح الحيرة المعذبة الرائعة، حين يعلق على الموال قائلاً : ومن حوله تنطلق التأوهات وصيحات الإعجاب السكرى المنتشية بالروح الجديدة والحياة الرائعة التى تدق أبواب قريتهم النائمة .

●●●

والآن نلتقى بالذين يمثلون الصراع، أو التفاعل- كما حرص على تسميته- وهو معنى أحسن الكاتب اختياره، ووفق، لما فيه من تصوير للامتزاج والمسالمة وبعد عن عنف الصراع وقسوة أسلحته، وأعود فأقول : من الذين يمثلون هذا التفاعل؟

مَنْ هم الذين يمثلون وجهتى النظر المتقابلتين؟

إنهم الباشكاتب عبد المعطى والمعلم حامد والحاج على فى جانب، والدكتور رمزى والحكيمة منال فى الجانب الآخر .

وإحلال الأفكار فى الشخصيات، وجعل الشخصيات معبرة عن معانٍ يحرص الكاتب على إظهارها، ومسجلة

لحركات اجتماعية يرى رصدها وتفسيرها، كل ذلك رائع وجميل؛ ودليل على حيوية الكاتب وغنى نفسه وإيجابيته. ولكنه- من الوجهة الفنية الخالصة- خطر!! . . فالرمز أرقى وسائل التعبير، ولكنه أيضًا أكثرهما احتياجًا للدقة والصبر والحساسية المطلقة فى اختيار الكلمات إذ يجب أن تشف كل كلمة، وكل صفة، وكل موقف فى القصة عما يقابله من معنى تجريدى يرغب الكاتب فى تسجيله، أو فى الأقل: لا يجوز أن تتعارض هذه الأشياء مع المضمون العام للعمل الفنى.

ولكى أكون واضحًا أتساءل: هل مثلت هذه الشخصيات القرية والمدينة؟ أو التأخر والمدنية، أو الجمود والروح الجديدة تمثيلاً صادقًا؟

ولنحتكم إلى شخوص القصة. .

الباشكاتب عبد المعطى، أروع هذه الشخصيات، تتغلب عليه النزعات الشريرة والرغبة فى الإيذاء، إنه - حقًا- يدافع عن الحقوق المسلوبة، ويشهر بنائب الدائرة اللص، ويستنجد بالمسئولين لإنقاذ القرية من المجاعة، لكنه أيضًا «إذا ضايقه أحد، أو عرقل له أمرًا، أو خيب له رجاء، لا يعدم عبد المعطى حيله كى يوقع أحدهم فى ورطة»، وهو «دءوب حقود شرس بطبعه».

وهو أيضًا: «يكره من هم فوقه حتى لكأنه يظن أنهم سبب فقره وسبب مرضه».

ثم إنه من وجهة نظر طبيب المجمعة: «وسيط خبيث يأخذ أجرة الكشف الطبى ويحتجز لنفسه السمسرة المعهودة».

ألا أكون محقًا حين أعرف أن القرية تحبه، وأن الفلاحين يشبهون خطه بسلاسل الذهب، ألا أكون محقًا فى اعتبار القرية مجتمعًا مريضًا يعشق البطولة المريضة!!

والمعلم حامد تاجر مخدرات، ومتعهد يغش المرضى من أبناء قريته. خيانة تكعيب.. ويقدم الرشاوى للموظفين.

والحاج على داهية جبار بماله، وبسلطات أخيه حكمدار البحيرة، وبقطاع الطرق الذين يجمعهم حوله.. وهم جميعًا تستعبدهم غرائزهم الدنيا، وهى غرائز مريضة منحرفة تجد لها متنفسًا على حساب فتاة مسكينة وحيدة لا حول لها، فيحاول كل منهم امتلاكها بوسائله الخاصة.

وممثلو الروح الجديدة.. لا روح لهم!!

منال تذهب إلى القرية ضائقة الصدر، كارهة، كأنها باريسية، وليست من حى السيدة زينب، وكأنها فى طريقها إلى مذبح قبيلة أسطورية من آكلى لحوم البشر، وليست ذاهبة إلى قرية مصرية فى محافظة الغربية، وهكذا تذهب ودمعتها

على خدها، وهو لا يصورها لنا إلا عابثة لاهية، ولا تكاد تفيق من عبثها إلا حين تنطلق الشائعات من حولها، حينئذ فقط تتذكر مهمتها وتكشف أنها ليست ممرضة خصوصية لعبد المعطى والمعلم حامد، وإنما هى للجميع، للشباب والشيوخ والأطفال.. رجالاً ونساء، وتكشف أيضًا أن المتعهد يغش الأغذية، فتروح تدقق فى الخبز والكوسة، وتثور من أجل الخبز البايت!! والطبيب الدكتور رمزى.. لقد كفانا مؤونة البحث عن سره، إنه يقول لمنال: «فى عام واحد يجب (هكذا.. يجب!!) أن أمتلك سيارة فاخرة تليق بى كطبيب، كما يجب أن يكون معى مبلغ كبير من المال»!!

فتقول منال: أحلام الأطباء الجدد، مجد ومال وعربة فاخرة.

ويبرز الطبيب هذا الشره، أو يبرز له المؤلف قائلاً: «وماذا فى ذلك، نحن ندفع الثمن من دراستنا الصعبة الطويلة، ومن عملنا الشاق فى هذه الغربة وسط الفلاحين والبعوض والتراب».

ليت شعرى.. أين يريد هذا الطبيب مصاص الدماء أن يعمل إذن إن لم يكن بين الفلاحين والبعوض والتراب!!

ومع ذلك فإنه لا يتورع عن التحايل على القانون- هذا مثل الروح الجديدة!!- فيعالج المرضى خارج الوحدة المجمعة،

وإذا بليتم فاستتروا ، ولكنه لا يستتر ؛ وإنما يقاسم الباشكاتب عبد المعطى الدماء المنزفة من الفلاحين التعساء .

وليست هذه كل سيئاته . . أو سوءاته ، فتستطيع أن نضيف إليها وقاحته فى مغازلة الحكيمة منذ الأيام الأولى للقائهما ، وكأن هذا حق مكتسب بحكم وظيفته الرئاسية لها ، قبوله للرشوة تحت ستار الهدايا وتبريره لذلك بأنه لا يستطيع مقاومة رغبات العصابات التى تحكم القرية ؛ لأنهم أشرار ، وهو غريب ووحيد!!

وهكذا عاش مثل الروح الجديدة والنور الخلاق . . عاش بلا مبادئ ، بلا عمود فقرى يعصمه من التهافت فى التراب ، وقدم لنا بطريقة تجعل تفسيره على مستوى الرمز وصمة للمدينة التى ذهبت لتعيد الحياة إلى القرية .

والذى نحرص على تسجيله هنا أننا لا نريد بما قلنا أن نزعم أن هذه الشخصيات مفروضة على القصة ، أو غريبة على الجو الذى خلقت فيه وعاشته . . كلا .

فمن منا لم يقابل الباشكاتب عبد المعطى فى القرية؟ الأزهرى الذى فسد ، فعاش يتقاضى الناس ضريبة علمه القليل الكليل؟

ومن منا لا يعيش –ولو فى نجوة عن نفسه– بأحلام الدكتور رمزى ، أو ببعض أحلامه ، ولفترة من عمره ، ربما

تكون بداية التقائه بالحياة العملية وقبل أن تعركه التجربة مثل الدكتور رمزى؟

ولكنى أريد أن أقول : إن الرمز هنا ناقص ، فلم نلتق بالقرية فى أعماقها البسيطة الكادحة المؤمنة ، المسلحة بالصدق والمسالمة والوضوح ، ربما وجدنا بعض ذلك فى أم العز ، الطيبة الصابرة الوفية لزوج منحرف عابث ، ولكن ليس بالقدر الذى يتعادل مع طغيان الشخصيات الأخرى المريضة التى تناثرت فى جو القصة ، والتى لم يخفف من قسوة دلالتها تلك النهاية المسالمة الجميلة للقصة ، حين تنطلق السيارة بالطبيب والحكيمة ، وقد ثاب المنحرفون إلى رشدهم ، ومصمص أهل القرية فى أسى لسفر الطبيب والحكيمة قائلين : الله يجازى أولاد الحرام .

ربما كان فى ذلك بعض الاعتذار عما سلف ، لكنه فى نهاية القصة ، وفى لمحة ، وليس فيه دلالة المشاركة الفعلية ، أو عمق العنصر الصالح كنا نحتاج إلى شخصية أخرى تضاف إلى مجموع هذه الشخصيات ، أو تحتل مكان إحداهما ، وتكون الميزان العادل للتعرف على حقائق الأشياء .

كما أننى لم ألتق بروح المدينة الحديثة التى يمثلها المثقفون كما هى ، ولا كما يجب أن تكون ، فالطبيب بلا مبادئ مثل

الآخرين، ومنال عابثة، وليتنى التقيت بكفاحهما فى القرية، واشتجارهما مع أهلها حول مشروع جديد لرفع المستوى الصحى أو القضاء على بعض الخرافات السائدة فى العلاج مثلاً، ولقد حدثنى الكاتب بنيته فى كتابة قصة عن وباء الكوليرا فى مصر، فلعله يتحاشى هذا الذى أراه.. إن رآه مثلى.

ولعل شخصيات هذه القصة هى أبدع ما فيها، إذا فهمت متحررة من الرمز، وللكاتب الأديب قدرة فائقة فى رسم الشخصيات وتحريكها، وإسباغ معالم الحياة عليها.. ولعلنا لم ننس «فريد الحلوانى» بطل قصته الرائعة «فى الظلام».

وهنا نلتقى بشخصيات ممتازة التصوير، متكافئة مع نفسها، ومنطقية فى مواجهة الأحداث.

فلاشك أنك مثلى تحب وتكره الباشكاتب عبد المعطى، تشفق على ضعفه وعجزه وطموحه، وتضيق بإلحاحه وشراسته.. إنه فارس من لون غريب.. مثل اللص الشريف.

إنه حقود شرس، ولكنه إنسان.. يذل أمام الجمال، وتذهب به الأمانى إلى بعيد.. «أحقًا ستسافرين إلى الأبد يا منال.. ولا نراك»؟

ويكتب لها فى الرسالة «عزيزتى منال.. لعل أكثر من خطأ

بدر منى، والله يقـــول ليس على المريض حــرج، وأنا كنت مريضًا، وليس على الأعمى حرج، وأنا نصف أعمى».

إن هذه الشـخـصـيـة مـرسـومـة بعناية، عناية طغت على النماذج المألوفة عن الشخصيات الريفية، فلا تنقصها أية صفة لتفيض بالحياة والحركة، ولتكون محلاً لإعجابنا.

وربما نازعـهـا هـذا التـفـرد بروعـة التـصـوير المعلم حـامـد المليجى.. الذئب المكشر عن أنيابه فى ابتسامة خبيثة سامة لا تخلو من سحر الإغراء.

ولقد أعجبت بالمعلم حامد فى كل أحيـانه، حين يغرى، وحين يسخر من زوجته، وحين يغضب.. ولم تخنه أعصابه، وهى أعـصـاب تـاجـر مـخـدرات، مـرة واحـدة.. حـتى حين هاجمته الشرطة وبيته يحترق.

وهو يقـدم زوجـتـه إلى منال قـائلاً: زوجـتى.. الأشـغـال الشاقة المؤبدة التى حكم بها أبى على رحمه الله.. زواج بدل.

وحين تطرى منال جمالها يقول: إنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم.. مثل النعاج تمامًا..

وإذا كنت تضـحـك لتهكمات حامـد، فإنك ترثى لأم العز، المعبرة عن أعماق القرية البيضاء حين تتلقى رهاناته بابتسامة لا تعرف الحقد قائلة: يطول عمرك يا سى حامد. وهى تصر على

أنه رجلها، وأبو عيالها، وتصر على أن الله يجب أن يبارك فيه حتى حين يصطحب فتاة جميلة إلى بيته!! فحين يقول المعلم: هذه الجاموسة لا تعرف المرض. تقول أم العز: ربنا يبارك فيك يا سى حامد.

هذا هو الإبداع.. إبداع الفنان حين يأبى الانصياع للإحساس المباشر الفج، ويتعمق الشخصية حتى تصل فى ذهنه إلى مرحلة الوضوح المشرق، ثم يتركها تحقق ذاتها.

وعندما تغاضبه منال، وترد المكرونة، وتأمر بشراء الأرز على حسابه، يقول دون أن تزايله الابتسامة: كلام الملوك لا يرد، لكنها حين تقذف له بالسوار، يعرف كيف وأين يوجه ضربته، فيخلع عن نفسه الابتسامة لتظهر أنيابه ومخالبه، فيقول.. أنا أثقل من أن يحملنى أحد عنوة، والناس هنا لا يأخذون أوامر النساء مأخذ الجد.

وشخصية الطبيب أيضًا لم تخل من هذه الدقة فى بعض جوانبها فهو فى قصة حبه للحكيمة يبدأ بأن يخاطبها بعزيزتى منال، وبعد أيام يزحف بيده حول خصرها، ثم قبلة والليل ساكن، ثم دعوة صريحة لقضاء عطلة آخر الأسبوع فى الإسكندرية، وحين يصفعه الرفض، ويعتكر جو العمل فى المستشفى يفكر فى الزواج منها!!

ألسنا نكتشف فيه أنفسنا ! ؟

●●●

ولعل الدراسة العلمية لأديبنا فى حياته الجامعية علمته الاستغناء عن فضول الكلام، والاكتفاء باللمحة الدالة، والميل إلى التقصى، وتقليب الرأى فى المسألة الوحدة على شتى الوجوه.. وهذه جميعًا أهم أدوات الفنان الحق.

ومع ذلك فأسلوب هذه القصة لا يخلو من هنات وإن كانت قليلة.

ففى البداية تطالعك هذه الجملة : لم يكن فى ذهنها - والعربة تسرع عبر الطريق الزراعى الممتد بين قريتى سنباط وشرشابة- سوى صورتين متناقضتين.

ألا ترى أن هذه الجملة المعترضة الطويلة تهز الصورة، وتكاد تذهب ببهائها؟

ومثل ذلك ما يقوله عبد المعطى عن الطلبة الجامعيين فى القرية (الذين تجاهل الكاتب وجودهم إلا فى هذه الجملة!!): وأحذيتهم اللامعة التى تشبه فى لمعانها بشرة وجوهم التى يجرون فوقها الموسى صباح مساء».

هذا التكرر والتوليد فى الصفات، والربط بينهما بحروف الصلة لا يجعلها فى مستوى التعبير الفنى السليم.

على أننا نلتقى بالأسلوب الممتاز، المعتمد على إشعاع الكلمات، ووميضها، والاقتصاد فيها دون تقتير أو قصور، وانتفائها بعناية تثير الإعجاب فى أماكن كثيرة.

فهو حين يصف منازل القرية يقول: تفوح من داخلها روائح (حياة) الإنسان والحيوان.

فانظر إلى المغزى الرائع، والمعانى المتعددة التى تزخر بها كلمة (حياة).

وعندما يمرض عبد المعطى ويلزم بيته، يحل وسيط آخر بين الطبيب وبين مرضاه، وكان عبد المعطى منتشيًا بزيارة منال له فى بيته، لذلك «كان زاهدًا فى المال الذى يعطيه له الطبيب ولم يشعر بحقد (بالغ) تجاه الرجل الذى شغل مكانه».

ألا يدل اختيار هذه الكلمة (بالغ) على مغزى عميق التعريف بنفسه الباشكاتب الذى لا يتخلى عن حقده أبدًا!؟

وعندما يناجى عبد المعطى «منال» فى المستشفى، ويحاول أن يقنعها بقوته، يقول لها: ألا تذكرين حين قال الطبيب يوم (لقائنا الأول) أننى أهم شخص فى شرشابة؟ كان يستطيع أن يقول يوم جئت المجمعة، أو يوم رأيتك أول مرة أو يوم رأيتنى مع الطبيب ولكن (اللقاء الأول) بالنسبة للمحبين شىء فى غاية الأهمية، إنه مصدر الحياة حبهم فى كل حين، ومن ثم

فإن هذا اللفظ أثير لديهم، يجرى على ألسنتهم وكأنه تأشيرة مرور إلى استئناف العلاقة إن انقطعت، وتوثيقها إن وهنت.

ويمتزج هذا الأسلوب المقتصد بالتحليل الدقيق والتصوير المتقن فى مواقف كثيرة:

فعبد المعطى حين تقرصه فى خده، يقف فى مكانه لا يغادره «ومن آن لآخر يتحسس خده الذى قرصته منه، ثم ينظر إلى يده التى لمستها، ويذوب فى مشاعره الشجية، ويخيل إليه أنه يلقى برأسه على صدر حنون دافئ فيه حب وحياة وسكينة، ويتسع فم عبد المعطى بابتسامة تنبع من أعماقه، وتشرق عيناه بدموع الفرح، وتبدو الشمس من حوله تنير المكان وكأنه رجل جديد».

حتى الشمس.. الظاهرة المتكررة بعدد لحظات الزمن، اكتشف عبد المعطى فجأة أنها تنير نفسه، لأنه يحب.

وفى موقف آخر حين تسخر منال من محاولة المعلم الزواج بها، وتعلن أنها تأنف أن يمسح حذاءها.. «كان لهذه العبارة صدى متناقض فى نفس عبد المعطى، فقد اجتاحته نشوة عارمة حينما سمعها تسخر من المعلم.. لكن ما معنى ذلك؟ هل منال تنظر إلى القرية ورجالها وعواطفها هذه النظرة المتعالية الساخرة؟ فماذا تكون نظرتها إلى عبد المعطى العليل الفقير إذن؟».

وعندما ترفض منال الرشوة المتوارية فى السوار، ويقول للمعلم: أنا لا أقبل الرشوة ولو قطعت رقبتى، فإنه يهتز لشجاعتها الطارئة ويستمتع بتحدى الغير له، وحين تهينه يحدث نفسه: هذا الصنف المتمرد الثائر من النساء حلو المذاق، شىء لم أجربه، إنها تنتفض بالحياة وتلفح كالنار.

على أن فى القصة بعض السرد الذى تمنيت لو تخلصت منه، فالفن دعامته الإحساس الصادق، وهذا متوفر، ثم التعبير بطريقة فنية تخضع لمقومات الشكل الذى اختاره الفنان للتعبير عن تجربته وهذه المقومات مستقاة من الأعمال الخالدة التى خطها رواد هذا الفن.

ووسائل التعبير فى القصة يجب أن تختلف بين المواقف بحوارها، والوصف، والتحليل، والعمل، والتأمل والاستبطان ولكنها ضد السرد، الذى يبدو مفروضًا، ودخيلاً، وجافًا.

ولنضرب لذلك مثلاً؛ فعندما تزور منال والطبيب عبد المعطى فى مرضه، يتحدث عنه المؤلف بقوله: وعبد المعطى فى ذلك الوقت طفل فى عواطفه وانفعالاته.

ولو أنه قال- على سبيل المثال- إن فرحة طفلية بدت على وجهه الشاحب حين رأى منال تدخل عليه، يبدو لى أنه قال ذلك لكان أبعد عن السرد، وأقرب إلى لغة القصة.

على أن السرد يسوق إلى نقطة ضعف أخرى في لغة القصة وفي مواقفها، هي إجمال المشاعر الإنسانية في كلمات.. مثلاً «كان عبد المعطي قد عاد إلى بيته- بعد أن أسف لتصرف منال معه وفي قلبه الآلام والأحزان».

ترى لو حذفت الجملة المعترضة كالشجا في الحلق، هل ينقص إحساسك بها، في موقعها من السياق شيئًا!؟ على أنها تحمل موقفًا عاصفًا مملوءًا بالانفعالات المتضاربة، والأسى العميق، وهذا الإجمال يقتل الموقف قتلاً.

إن ذلك ليذكرني بنجوم السينما عندنا، حين يتغلبون على عجزهم عن مواجهة اللحظات الدقيقة، مثل سماع نبأ فاجع، بالبكاء المباشر، أو إعطاء ظهرهم لآلة التصوير.. أو الهروب بالإغماء.

كلا.. في الفن.. الهروب ممنوع، ويجب أن يصمد الكاتب لكل موقف وأن يعطيه غذاءه الكافي من أعصابه وروحه، وقدرته على الإحساس وتقمص الشخصيات ومعايشة الوقائع.

وكاتبنا الأديب متصل أوثق بروح هذا الشعب، وهو يحن دائمًا إلى لغته ووسائله في التعبير عن مشاعره، وللموال في قصصه دائمًا مغزاه العميق، وحساسيته الشفافة، ولكن

حماسة للموال الشعبى يسوق أحيانًا إلى وضعه فى غير موضعه.

ألا ترى إلى ذلك الغناء الذى سمعته منال وهى فى طريقها إلى منزل المعلم حامد، كان عقد قران، أو كتب كتاب كما نقول فى لغتنا العامة، والمأذون يوثق والرصاص يزغرد فى الجو.. وكانت النساء تغنى:

هاتوا الدهب وشعتروا ع الأرض

ماهش خسارة فى بياض العرض

وأغانى بياض العرض لا تقال فى الريف عند عقد القران وشرب الشربات، بل فى ليلة الزفاف حسين يثبت (بياض العرض) بطريقة بدائية!!

●●●

واللمسات السريعة فى نواحى القصة متقنة، وجميلة، وموفقة، فسائق العربة التى تحمل (منال) يخبرها أن الخفير يحميها، وربما لا يغيب عنه أنه يتحدث إلى امرأة، ودأب النساء حب المديح والمبالغة فيردف: القرية كلها الآن تعرف أنك فى الطريق.

ومنال تصرخ فى أمها وهى تلهث: زجاجة كوكا كولا يا

ماما . . ما هذا البخل!! والمعلم حامد يتصدق على المدمنين بالحشيش!!

وبعض مأساته زواج البدل، وهى مشكلة طالما عانى فيها الريف والمدينة معًا، والحاج على يعبر عن اغتباطه بلقاء أم منال بأن ذلك يعتبر «فرصة ذهبية»، وللذهب عنده وميض خاص، فلا يلبث أن يخرج ساعته الذهبية أيضًا .

وهناك صورة ساخرة ما أحسب أن الكاتب أراد بها السخرية، وذلك حين صور «منال» وهى تتسلم الأغذية من المتعهد، وكانت «تمر بين الأقفاص والجوالات الممتلئة بالخضراوات والأرز والمكرونة والأرغفة والبيض واللحم، تتهادى فى بهاء كالوردة اليانعة، خطواتها خطوات أمير يحوطها جو المهابة والسحر والجمال» .

أترى . . وردة، وأميرة، وسحر؛ ومهابة، وجمال . . بين جوالات السبانخ والكرنب . . وربما الفجل أيضًا!!

لا يا سيدى الأديب، ليس الجمال إدراكًا حسيًا، أو رؤية عينية منفصلة عن باقى الإدراكات؛ إنه إحساس عميق نتيجة لاكتشاف التناسق بين مجموعة المشاعر التى تسهم فى خلقها حواس ظاهرة، وحواس خفية أيضًا .

وفي غاية المطاف نلتقى بلحن سلام . . ينتهى التفاعل إلى المسالمة، الطبيب والحكيمة متفقان على الزواج، والعربة تمضى بها بين دموع أبناء الحلال الذين يستعدون السماء على أولاد الحرام . . وربما استفادوا من تجربتهم مع رمزى ومنال فيحسنون لقاء من يأتى بعدهما، وحين يذهب الباشكاتب عبد المعطى إلى حيث لا أحقاد، يتصافى المعلم حامد الذى تاب عن تجارة المخدرات، والحاج على . . ويلتقيان فى بسمة تحيى أصدقاءها الألداء .

بعد هذه الجولة الطويلة فى الربيع العاصف، التى أرجو ألا تكون مملة، وأن تكون قد وثقت من صلتك بهذا العمل الجميل الجاد، الذى لاينال من جدته وقوته ما لاحظناه عليه من أشياء جزئية لا تتسرب إلى بنائه المحكم وأدائه الخصيب .

بعد هذه الجولة هل نستطيع أن نتساءل : أين مكانها فى أدبنا القصصى .

إنها قصة مرحلية، تصور فترة من حياة بقعة من هذا الوطن، ومحلية الموضوع لا تتنافى مع إنسانيتها العميقة، وما تناقشه من قضايا وما تصوره من مشاعر مشتركة بين البشر .

إذا كانت «الأرض» للشرقاوى قد صورت القرية المصرية فى عهد الاستبداد، و«زقاق المدق» لنجيب محفوظ، قد

صورت المدينة المصرية أثناء الحرب، فإن «الربيع العاصف» لنجيب الكيلانى قد صورت القرية المصرية وهى تمد يديها للمدينة الحديثة، والعلاقات تضطرب بينها فى مد وجزر فينتج هذا الصراع . . أو التفاعل . . الذى يحرك الوجود، ويصنع الحياة.

إن هذه القصة تظهر حقائق الحياة بسيطة وسهلة، وتؤمن بمقدرة الإنسان على التطور والإبداع، وتعطف على مشكلاته وتشترك فى حلها:

وهى دعوة إلى تكريم إنسانية الإنسان، واحترامها، وترحب بالجهود البناءة الواعية لحضارة واعية.

وهى أيضًا نغم منسجم مع إنتاج هذا الأديب، وفيها ما لاحظناه على إنتاجه العام من هادفية مؤمنة، وعمق وشفافية متصوفة تبدو كومض الخاطر بين السطور.

●●●

الصديق الأديب الدكتور نجيب الكيلانى أحد أطباء أربعة فى جيلنا شغلهم الأدب عن التفرغ لمهنتهم، فلم يتخذوه لهوًا، ولا ترفًا وإنما تناولوه تناولاً جادًا، وعميقًا، وأملوا أن يؤثروا فى حياة قومهم عن طريقه.

وإذا كان لكل واحد منهم اتجاهه الفكرى، أو طرائقه فى التعبير؛ فإن نجيب الكيلانى ابن مخلص لهذا الوطن الكبير، وتجلى إخلاصه العميق فى كتاباته الجادة التى يغلب عليها طابع الرصد والتحليل، والتى تعطف على حياة الناس، وتدعو إلى تنقية الضمائر، وتلاقى القلوب على معنى الحب والإيمان. .

القاهرة ١٠ يونيه سنة ١٩٦٢ **محمد حسن عبد الله**

●●●